

شرح منهج الحق

منظومة في العقيدة والأخلاق

للشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله تعالى
١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ



شرحها

عبد الرزاق بن عبد الرحمن البدر

طبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

شرح

منهج الحق

منظومة في العقيدة والأخلاق

للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي

رحمه الله تعالى

١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ

شرحها

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمّا بعد: فهذه أبياتٌ عظيمةٌ ومنظومةٌ نافعةٌ للإمام العلامة الفقيه المفسر المحقق عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر ابن سعدي - رحمه الله تعالى وغفر له - حوت خيرًا كثيرًا، وفوائد عظيمةً في بيان «المنهج الحق» الذي ينبغي أن يلزمه المسلم عقيدةً وعبادةً وخلقًا، وقد نظمها رحمه الله في وقت مبكر من حياته؛ في العقد الثالث من عمره - رحمه الله تعالى -^(١)، وقرّر فيها من المعاني العظيمة والحقائق الجليلة، والتفاصيل النافعة التي لا غنى لمسلم عنها، ولم يرد تسمية لها من ناظمها رحمه الله وإنما أخذ هذا الاسم من قوله في مستهلّها: «فيا سائلًا عن منهج الحق»، وقد بدأها رحمه الله بحث من يرجو لنفسه السعادة وينشد لها الفوز في الدنيا والآخرة أن يحسن التأمل في مضامينها وما حوته من خير عظيم.

وقد يسر الله الحصول على نسختين خطيتين لهذه المنظومة، تفضل أحفاد الشيخ رحمه الله ببعثها إليّ، ووصفها كما يلي:

(١) وذلك أن الشيخ: نقل من هذه المنظومة أربعة عشر بيتًا متعلّقة بفوائد الذكر في شرحه لمنظومته في السير إلى الله والدار الآخرة، وقال في تمام الشرح: «فرغت منه ومن نسخته في ٣ شعبان سنة ١٣٣٣»، وكانت ولادته في ١٢ المحرم ١٣٠٧.

- الأولى: نسخة تامة عدا البيتين الأخيرين، صدرها ناسخها - وهو من طلاب الشيخ - بقوله: «هذه منظومة تشتمل على أقسام التوحيد: توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى أمّهات عقائد أهل السنة والجماعة التي اتفقوا عليها، وعلى التفكير في مخلوقات الله، وآياته الدالة عليه، وعلى أسمائه وصفاته، ومشملة على التخلق بالأخلاق الجميلة، والتنزه من الأخلاق الرذيلة، إذ هذه الأمور أصول العلوم وأمّهاتها، وهي للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - جزاه الله خيرًا أمين -، وهي هذه» ثم ساق المنظومة، وقال في تمامها: «تمت غفر الله ل كاتبها وناظمها وقارئها ومن قال آمين، وجميع المسلمين، وصلى الله على محمد ١٣٤٥ هـ»، وقد رمزت لها بالحرف (م).

- الثانية: نسخة ناقصة سقط منها الأبيات: ٢٣، ٢٧، ٤٣، ٥٠ إلى ٦٢، مع تقديم وتأخير في بعض الأبيات، قال ناسخها في أولها: «هذا نظم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي في العقيدة»، وقد رمزت لها بالحرف (ص).
وقد أثبت ما رأيته الأقرب للصواب من حيث المعنى والوزن، وأشارت إلى الفروقات في الهامش، وبالله وحده التوفيق.
وأسأل الله الكريم أن ينفع بهذا النظم وشرحه، وأن يجزي الناظم الشيخ عبد الرحمن السعدي خير ما جزى عالمًا ناصحًا ومربيًا مصلحًا إنّه سميع مجيب، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الرزاق بن محمد الجسّاس البزاز

المدينة النبوية - في ٨ / ٨ / ١٤٣٢ هـ

منظومة منهج الحق في العقيدة والأخلاق^(١)

- ١- فَيَا سَائِلًا عَنْ مَنَهِجِ الْحَقِّ يَبْتَغِي سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ
- ٢- تَأْمَلْ هَذَاكَ اللَّهُ مَا قَدْ نَظَّمْتُهُ تَأْمَلْ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ
- ٣- نُقِرُّ بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ إِلَهُ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُجَدُّ
- ٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي نُحْصِصُهُ بِالْحُبِّ ذُلًّا وَنُقِرُّدُ
- ٥- فَلِلَّهِ كُلُّ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ وَالثَنَّا فَمَنْ أَجَلِ ذَا كُلِّ إِلَى اللَّهِ يَقْصِدُ
- ٦- تُسَبِّحُهُ الْأَمْلاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ
- ٧- تَنْزَرُهُ عَنْ نِدٍّ وَكُفٍّ مُمَائِلٍ وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْمُوَحِّدُ
- ٨- وَنُثِبَتْ أَخْبَارُ الصِّفَاتِ جَمِيعُهَا وَنَبْرًا مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ
- ٩- فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ فَسَلِّمْ لِمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ
- ١٠- هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعَظَمِ صِفَاتِهِ وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ لِلَّهِ يَضُمُّدُ
- ١١- عَلَى عَلَا ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرُهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالْوَرَى مُتَوَدِّدُ
- ١٢- هُوَ الْحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الْجُودِ وَالْغِنَى وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ لِلَّهِ تُسَنِّدُ

(١) مَنْ أَرَادَ سَمَاعَ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ بِقِرَاءَةِ مُوَافَقَةِ هَذَا الصَّبْطِ يُمْكِنُهُ الدُّخُولُ عَلَى الرَّابِطِ التَّالِي:

<http://www.al-badr.net/qiroah-mnhj-haq.php>

- ١٣- أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً
وَبِرًّا وَإِحْسَانًا فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ
وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ
وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ
١٤- وَيُبْصِرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلَّهَا
لَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْمُحِيطُ بِمُلْكِهِ
١٥- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى
وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ
١٦- وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ
فَأَفْضَلَ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
١٧- وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمَنُ أَصْحَابَهُ الْأُلَى
فَحُبُّ بَجِيعِ الْآلِ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا
١٨- وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ
وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنَّى لِحَلْقِهِ
١٩- وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ
وَإِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ
٢٠- وَيَزِدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعَ تَرْكِ مَا نَهَى
نُقِرُّ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ كُلَّهَا
٢١- وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

- ٢٨- تَفَكَّرْ بِآثَارِ الْعَظِيمِ وَمَا حَوَتْ مَمَالِكُهُ الْعُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ
- ٢٩- أَلَمْ تَرَهُذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا فَأَعْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ
- ٣٠- تَأَمَّلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعَهَا كَوَاكِبُهَا وَقَادَةَ تَرَدَّدُ
- ٣١- أَلَيْسَ لِهَذَا مُحَدِّثٌ مُتَصَرِّفٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَقَرِّدٌ
- ٣٢- بَلَى وَالَّذِي بِالْحَقِّ أَتَقَنَّ صُنْعَهَا وَأَوْدَعَهَا الْأَسْرَارَ اللَّهُ تَشْهَدُ
- ٣٣- وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ مُوقِنًا وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ
- ٣٤- وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبُ بِهِ يُعْرِفُ اللَّهُ الْعَظِيمُ وَيُعْبَدُ
- ٣٥- لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلَهُ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْقُدُ
- ٣٦- فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدُ
- ٣٧- عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي فِعْلٍ أَمْرِهِ وَتَجَنَّبِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَتُبْعِدُ
- ٣٨- وَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ وَاحْذَرْ مِنَ الرِّبَا وَتَابِعْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ
- ٣٩- تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ حَقًّا وَثِقْ بِهِ لِيُكَفِّكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ
- ٤٠- تَصَبَّرْ عَنِ الْعِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَيْكَ تَسْعَدُ
- ٤١- وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ
- ٤٢- وَقَلْبَكَ طَهِّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ

- ٤٣- وَجَمَّلَ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ
لَأَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ
٤٤- وَصَاحِبٌ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوقِفٍ
يُقَوِّدُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ
٤٥- وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ
خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدُ
٤٦- خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ
كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ
٤٧- تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً
وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ
٤٨- وَكُنْ سَالِكًا طُرُقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا
إِلَى الْمَنْزِلِ الْبَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْقُذُ
٤٩- وَكُنْ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ
فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَقْتُ مُقَيَّدُ
٥٠- فَذِكْرُ إِلِهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعَلَّنًا
يُزِيلُ الشُّقَا وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ
٥١- وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَا وَآجَلًا
وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشْرِدُ
٥٢- فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ
بِأَنَّ كَثِيرَ الذِّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرِدُ
٥٣- وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهُهُ
عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرَ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ
٥٤- وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ
وَقَدْ كَانَ فِي حِمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ
٥٥- بِأَنَّ لَا يَزَلُ رَطْبًا لِسَانُكَ هَذِهِ
تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسَعِّدُ
٥٦- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ
بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِينِ تُنْهَدُ
٥٧- وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ
وَمَعَهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

- ٥٨- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخْلَدُوا
- ٥٩- وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ
- ٦٠- وَيَنْهَى الْفَتَى عَنْ غِيَّةٍ وَنَمِيمَةٍ
- ٦١- لَكَانَ لَنَا حَظٌّ عَظِيمٌ وَرَغْبَةٌ
- ٦٢- وَلَكِنَّا مِنْ جَهْلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا
- ٦٣- وَسَلَّ رَبُّكَ التَّوْفِيقَ وَالْفَوْزَ دَائِمًا
- ٦٤- وَصَلَّ إِلَهِي مَعَ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ
- ٦٥- وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا
- وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخْلَدُوا
- طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمُرْشِدٌ
- وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدٌ
- بِكثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نِعَمَ الْمَوْحَدُ
- كَمَا قَلَّ مِنَّْا لِلْإِلَهِ التَّعَبُّدُ
- فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيِّمِ يَقْصِدُ
- عَلَى خَيْرٍ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشِدُ
- صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيُخْلَدُ

شرح المنظومة

١- يَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ يَبْتَغِي سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ

بدأ رَحِمَهُ اللهُ هذه المنظومة العظيمة بهذا النداء؛ نداء النَّاصِحِ المشفق المربي، فقال: «يَا سَائِلًا عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ»؛ أي: يَا مَنْ يُرِيدُ لِنَفْسِهِ مَنْهَجَ الْحَقِّ وَالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ والهدي القويم الَّذِي تَكُونُ بِهِ نَجَاتُهُ وفلاحه وسعادته فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَفِي هَذَا تَصْحِيحِ النِّيَّةِ فِي السُّؤَالِ، وَهُوَ أَمْرٌ تَمَسُّ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُوَفِّقُ لِمَصْلَاحِ النِّيَّةِ فِي سَوْأَلِهِ، وَمَصْلَاحُهَا أَنْ يَنْوِي السَّائِلُ بِسَوْأَلِهِ رَفَعَ الْجَهْلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي سُلُوكِهِ وَسَيْرِهِ إِلَى رَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَعَلَى جَادَّةٍ سَوِيَّةٍ.

«عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ» الْمَنْهَجُ: هُوَ الطَّرِيقُ الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ، وَ«مَنْهَجِ الْحَقِّ» هُوَ السَّبِيلُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْلُكَهُ الْمُسْلِمُ وَالطَّرِيقُ الَّتِي يَمْضِي عَلَيْهَا فِي عَقِيدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَخُلُقِهِ.

«يَبْتَغِي سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا وَيَسْعَدُ»؛ أي: يَبْتَغِي بِسَوْأَلِهِ عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ هَذَيْنِ الْأُمْرَيْنِ: سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ حَقًّا، وَأَنْ يَسْعَدَ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، فَجَمَعَ بَيْنَ: الْوَسِيلَةِ وَالْغَايَةِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «فَهَا هُنَا أَمْرَانِ: طَرِيقَةٌ وَغَايَةٌ؛ فَالطَّرِيقَةُ الْهُدَى، وَالْغَايَةُ السَّعَادَةُ وَالْفَلَاحُ؛ فَمَنْ لَمْ يَسْلُكْ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ»^(١).

و«طَرِيقِ الْقَوْمِ» هُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي لَا اعْوَجَاجَ فِيهِ، طَرِيقُ النَّبِيِّ ﷺ

(١) «الصَّوَاغِقُ الْمَرْسَلَةُ» (٣/ ١١٢٨).

وصحبه الكرام عليهم السلام، فالمراد بالقوم هنا: أي الكُمَّل الذين وفقهم الله - عز وجل -
للعناية بالخير علمًا وعملاً فكانوا قدوة لمن بعدهم.

قال الأوزاعي رحمته الله: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم،
وقل بما قالوا وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما
وسعهم»^(١).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: «سلام عليك، أمّا بعد: فإنني أوصيك
بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة رسوله، وترك ما أحدث المحدثون
بعدما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة قط إلا وقد مضى قبلها
ما هو دليل عليها، وعبرة فيها، فعليك بلزوم السنة، فإنها - بإذن الله - لك عصمة،
فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق،
فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا وبيصرو نافذ كفوا،
وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإنهم السابقون،
ولئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت حدث بعدهم حدث،
فما أحدثه إلا من خالف سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، ولقد تكلموا منه بما يكفي،
ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصّر، ولا فوقهم محسّر، لقد قصر عنهم أقوام
فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»^(٢).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ﴾

أتبعوهم بإحسان [البقرة: ١٠٠]، قال ابن القيم رحمته الله في «مدارج السالكين»^(٣):

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٥٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦١٢)، و«الإبانة الكبرى» لابن بطّة (١/ ٣٢٢)، و«الشریعة» (٥٢٩).

(٣) (١/ ٥٩).

«ولا ريبَ أنَّ ما كانَ عليه رسولُ الله وأصحابُه عِلْمًا وَعَمَلًا وَهُوَ معرفةُ الحقِّ وتقديمُه وإيثارُه على غيره، هو الصِّراطُ المستقيمُ».

وإذا عرفَ السَّالِكُ مكانةَ أهلِ الطَّرِيقِ السَّابِقِينَ فيه لم يَسْتَوْحِشْ، قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»^(١): «قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «عَلَيْكَ بِطَرِيقِ الْحَقِّ وَلَا تَسْتَوْحِشْ لِقَلَّةِ السَّالِكِينَ، وَإِيَّاكَ وَطَرِيقَ الْبَاطِلِ وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ»، وَكَلَّمَا اسْتَوْحِشْتَ فِي تَفَرُّدِكَ فَانْظُرْ إِلَى الرَّفِيقِ السَّابِقِ، وَاحْرِصْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِمْ، وَغُضِّ الطَّرْفَ عَمَّنْ سِوَاهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَإِذَا صَاحُوا بِكَ فِي طَرِيقِ سَيْرِكَ فَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ مَتَى التَّفَتَّ إِلَيْهِمْ أَخَذُوكَ وَعَاقُوكَ».

وَبِتَأْمُلْ طَرِيقَ الْقَوْمِ وَسَبْرَ مِنْهَجِهِمْ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ - ثُمَّ النَّظَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى حَالِ أَنْفُسِنَا نُدْرِكُ كَثْرَةَ تَفْرِيطِنَا، وَعَظَمَ تَقْصِيرِنَا فِي لُزُومِ مِنْهَجِهِمْ مُوَاطَئَةً عَلَى الْعِبَادَةِ، وَرِعَايَةً لِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَعَنَايَةً بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ الْفَاضِلَةِ، وَإِكْثَارًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حِلْيَةِ الْقَوْمِ وَزِينَةِ السَّلَفِ؛ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

«حَقًّا»؛ أَي: لَا ادِّعَاءَ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ انْتِسَابُهُ لَطَرِيقِ الْحَقِّ مُجَرَّدَ ادِّعَاءٍ، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ سُلُوكَ طَرِيقِ الْقَوْمِ دُونَ أَنْ يَسْلُكَهَا، وَبَيْنَ مَنْ سَلَكَهَا بِالْفِعْلِ، وَمَا أَكْثَرَ الْأَدْعِيَاءَ حَتَّى إِنَّ أَنْاسًا أَهْلَ بَدْعٍ وَضَلَالَاتٍ؛ بَلْ وَشُرَكِيَّاتٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ يَدَّعُونَ أَنََّّهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْقَوْمِ وَعَلَى مَنَاجِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ -، «وَأُئِمَّةُ السُّنَّةِ لَيْسُوا مِثْلَ أُئِمَّةِ الْبَدْعَةِ، فَإِنَّ أُئِمَّةَ السُّنَّةِ تَضَافُ السُّنَّةُ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ مَظَاهِرُ بِهِمْ ظَهَرَتْ، وَأُئِمَّةُ

(١) (١/ ٢٢).

البدعة تُضاف إليهم؛ لأنهم مصادر عنهم صدرت»^(١).

«وَيَسْعُدُ» وهي الغاية المنشودة ولا سعادة للعبد في دُنياه وأُخراه، ولا نجاة إلا بذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [سُورَةُ طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سُورَةُ الْجَنَّةِ: ٢١]؛ فَمَنْ كَانَ عَلَى نَهْجِ الصَّحْبِ الْكِرَامِ وَتَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ حَقًّا، مُخْلِصًا لِلَّهِ، مُتَّبِعًا لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فَهُوَ السَّعِيدُ.

٢- تَأَمَّلْ هَذَاكَ اللَّهُ مَا قَدْ نَظَّمْتُهُ تَأَمَّلْ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ^(٢)

«تأمل» أي: انظر هذا النظم بتأمل وتدبر وإعادة نظر مرّة بعد أخرى حتّى تثبّت معانيه، وترسخ مضامينه.

«هَذَاكَ اللَّهُ»؛ وهذه دعوة مباركة من الناظم رَحِمَهُ اللَّهُ لقارئ هذه المنظومة ومُطَالِعِهَا، والمعنى: أي كتبَ الله لك سبيلَ الهداية وجعلك من عباده المهتدين، والهداية تتناول سلوكَ طريقِ الحقِّ، والثباتَ عليه، والعلمَ بتفاصيله، والمحافظة على ذلك إلى الممات، قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في «جامع العلوم والحكم»^(٣): «وَأَمَّا سُؤَالُ الْمُؤْمِنِ مِنَ اللَّهِ الْهُدَايَةَ، فَإِنَّ الْهُدَايَةَ نَوْعَانِ: هُدَايَةٌ مُّجْمَلَةٌ، وَهِيَ الْهُدَايَةُ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَهِيَ حَاصِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَهُدَايَةٌ مُّفَصَّلَةٌ:

(١) «درء التّعارض» لا بن تيمية (٥ / ٦٠٥).

(٢) في نسخة (ص): يرشد.

(٣) (٢ / ٤٠).

وهي هداية إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانتة على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً، ولهذا أمر الله عباده أن يقرؤوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ [سُورَةُ الْفَاتِحَةِ]، وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بالليل: «اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

«مَا قَدْ نَظَّمْتُهُ»؛ أي ما أودعته في هذه المنظومة من معانٍ عظيمة، وتفاصيل نافعة في العقيدة والعبادة والأخلاق.

«تَأْمَلْ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْحَقِّ يَقْصِدُ» أي: ليكن تأملك لهذه المنظومة تأمل شخص يريد الحق ويبحث عنه، وهذا أيضاً فيه دعوة إلى تصحيح النية، فلا يكن تأملك لهذا النظم مجرد الاطلاع ونحو ذلك، وإنما ليكن غرضك قصد الحق ونيل رضا الرب - سبحانه وتعالى -.

قال ابن القيم رحمه الله في «التبيين»^(١): «والهدى التأم يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطرق الموصلة، والانقطاع وتخلّف الوصول يقع من الشّرْكة في هذه الأمور أو في بعضها؛ فالشّرْكة في المطلوب تُنافي التّوحيد والإخلاص، والشّرْكة في الطلب تُنافي الصدق والعزيمة، والشّرْكة في الطريق تُنافي اتباع الأمر؛ فالأول يقع في الشّرْكِ والرّياء، والثاني يقع في المعصية والبطالة، والثالث يقع في البدعة ومفارقة السّنة، فتأمل؛ فتوحيد المطلوب يعصم من الشّرْكِ، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشّيطان إنّما ينصب فخّه بهذه الطرق الثلاثة».

(١) (ص ٨٢).

٣- نُقَرِّبُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ إِلَهُ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مُجَدِّدٌ

«نُقَرِّ» من أَقَرَّ يُقَرِّ، والإقرار يتناول أمرين: تصديق القلب، وإذعانه ؛ أي: نصدِّق متقادين لهذا الحقِّ والهدى.

«بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ»؛ أي: بِأَنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - متفردٌ بالربوبية لا شريك له فهو الخالق وحده، المالك وحده، المدبِّر وحده، لا شريك له في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن كثير في «تفسيره»^(١): «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له، والتوكُّل عليه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أطلبُ ربًّا سِوَاهُ، وهو ربُّ كُلِّ شيء، يُرَبِّينِي ويحفظُنِي ويكلِّؤُنِي ويُدبِّرُ أُمُري، أي: لا أتوكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، ولا أُنِيبُ إِلَّا إِلَيْهِ؛ لَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ومليكه، وله الخلق والأمر».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»^(٢): «وَالرَّبُّ: هُوَ الْمَرْبِيُّ الْخَالِقُ الرَّازِقُ النَّاصِرُ الْهَادِي، وَهَذَا الْأِسْمُ أَحَقُّ بِاسْمِ الْإِسْتِعَانَةِ وَالْمَسْأَلَةِ».

«إِلَهٌ»؛ وَالْإِلَه: هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي يُؤَلِّهُ وَيُحِبُّ وَيُخَضِّعُ لَهُ، وَتُصَرِّفُ لَهُ أَنْوَاعَ الْعِبَادَةِ؛ فَهَذَا الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي لَيْسَ لَنَا مَعْبُودٌ سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء: ٩٢]، قَالَ ابْنُ رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ»^(٣): «وَالْإِلَه:

(١) (٦/٢٥٢).

(٢) (١٤/١٣).

(٣) (ص ٢٣).

هُوَ الَّذِي يُطَاعُ فَلَا يُعْصَى، هَيْبَةً لَهُ وَإِجْلَالًا وَمَحَبَّةً وَخَوْفًا، وَرَجَاءً وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، وَسُؤَالًا مِنْهُ وَدَعَاءً لَهُ، وَلَا يَصْلُحُ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَمَنْ أَشْرَكَ مَخْلُوقًا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلَهِيَّةِ، كَانَ ذَلِكَ قَدْحًا فِي إِخْلَاصِهِ فِي قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَنَقْصًا فِي تَوْحِيدِهِ^(١)، وَكَانَ فِيهِ مِنْ عِبُودِيَّةِ الْمَخْلُوقِ بِحَسَبِ مَا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ فُرُوعِ الشِّرْكِ.

فَالْعِبَادَةُ وَالْخُضُوعُ إِنَّمَا هِيَ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ وَالْخَالِقِ الْجَلِيلِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، الْمَتَفَرِّدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ لَا نَدَّ لَهُ.

«عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» هَذِهِ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ: سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَعْلَاهَا وَأَكْبَرُهَا، وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَصَفَ الْعَرْشَ بِالْعَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَوْسَعُهَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ هَذَا الرَّبَّ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ الْعَظِيمِ اسْتِوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [شُكْرًا لِلَّهِ]، وَقَالَ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

«مُجَدِّدٌ» أَي: لَهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الْمَجْدُ وَالثَّنَاءُ، وَهُوَ أَهْلُ الْمَجْدِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، وَالْمَجْدُ هُوَ السَّعَةُ، وَالْمَجْدُ أَي: الَّذِي لَهُ التَّمَجِيدُ وَالثَّنَاءُ الْوَاسِعُ الَّذِي لَا حَصْرَ لَهُ وَلَا إِحْصَاءَ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: «نَقْصًا لِتَوْحِيدِهِ» وَلِهَذَا الْاِشْتِبَاهُ حَذَفَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذِهِ الْجُمْلَةَ عِنْدَ نَقْلِ هَذَا النَّصِّ عَنْ ابْنِ رَجَبٍ.

(٢) مُسْلِمٌ (٤٨٦).

٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ مَعْبُودُنَا الَّذِي نَخْصِّصُهُ بِالْحُبِّ ذُلًّا^(١) وَنُفَرِّدُ

«وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ مَعْبُودُنَا»؛ وهذه شهادة التَّوْحِيدِ ومدلولُ كلمةِ التَّوْحِيدِ «لا إلهَ إِلَّا اللهُ»، أي: المعبود بحق ولا معبودَ بحقٍ سِوَاهُ؛ المستحقُّ لِأَنْ يُفَرَّدَ بِالْحُبِّ، والذُّلُّ والخُضُوعُ والانكسار، ثُمَّ بَيَّنَّ معنى ذلك فقال:

«الَّذِي نَخْصِّصُهُ بِالْحُبِّ ذُلًّا»؛ وهذا هو معنى العبادة الَّتِي يجبُ أَنْ يُفَرَّدَ الرَّبُّ - تبارك وتعالى - بها؛ غاية الذُّلِّ مع غايةِ الحبِّ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، فالْحُبُّ بدون ذُلٍّ ليس عبادةً، والذُّلُّ بدون حُبٍّ ليس عبادةً، وهذا أمرٌ يجبُ أَنْ يُفَرَّدَ اللهُ - سبحانه وتعالى - به، ولهذا قال: «نَخْصِّصُهُ» أي: نُفَرِّدُهُ بِذلك ونخُصُّهُ به، ولا نجعلُ معه - تبارك وتعالى - شريكًا في شيءٍ من ذلك.

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»^(٢): «الْعِبَادَةُ تَجْمَعُ كِمَالَ الْحُبِّ فِي كِمَالِ الذُّلِّ، وَكِمَالِ الانْقِيَادِ لِمُرَاضِي الْمَحْبُوبِ وَأَوَامِرِهِ، فَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا غَايَةٌ».

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» أَيْضًا^(٣): «وَرُوحُ الْعِبَادَةِ: هُوَ الْإِجْلَالُ وَالْمَحَبَّةُ، فَإِذَا تَخَلَّى أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فَسَدَتْ». «وَنُفَرِّدُ»؛ أي: نُفَرِّدُهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِالْحُبِّ وَالذُّلِّ.

(١) فِي نَسْخَةِ (ص): شَوْقًا.

(٢) (٣/٤٤١).

(٣) (٢/٤٩٥).

هـ- فَلِلَّهِ كُلُّ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ ^(١) وَالثَّنَا فَمَنْ أَجَلَ ذَا كُلِّ إِلَى اللَّهِ يَقْصِدُ

«فَلِلَّهِ كُلُّ الْحَمْدِ وَالْمَجْدِ وَالثَّنَا»؛ «الْحَمْدُ» هو ذكرُ صفاتِ المحمودِ مع حُبِّهِ وتعظيمِهِ وإجلالِهِ، «وَالْمَجْدُ» توسيعُها والزيادةُ في قدرِها وصفَتِها، «وَالثَّنَا» تكريرُ المحامدِ وتثنيَتُها، وهذه الثلاثة اجتمعت في فاتحة الكتاب، ففي حديثِ أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ - تبارك وتعالى - قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ - أَي: الْفَاتِحَةَ - بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ؛ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَحْمَدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّنِي عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ^(٤)، قَالَ: مَجْدَنِي عَبْدِي» ^(٥).

وجُمِعَت أيضًا في الذكر الذي يُقال عند الرَّفْع من الرُّكُوع: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ» ^(٦).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «درء تعارض العقل والنقل» ^(٧): «والثناء تكريرُ المحامدِ وتثنيَتُها كما في الحديثِ الصَّحِيحِ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٨) قَالَ اللَّهُ: حَمْدِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٩) قَالَ: أَنَّنِي عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ^(١٠) قَالَ: مَجْدَنِي عَبْدِي»،

(١) في نسخة (م): كُلُّ الْمَجْدِ وَالْحَمْدِ.

(٢) مسلم (٣٩٥).

(٣) مسلم (٤٧٧).

(٤) (٤/١٦-١٧).

وفي «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» فذكر الحمد والثناء والمجد هنا كما ذكره في أوّل الفاتحة؛ فالحمد يتناول جنس المحامد، والثناء يقتضي تكريرها وتعيدها والزيادة في عددها، والمجد تعظيمها وتوسيعها والزيادة في قدرها وصفتها؛ فهو سبحانه مستحقُّ للحمد والثناء والمجد، ولا أحد يحسن أن يحمده كما يحمده نفسه، ولا يثني عليه كما يثني على نفسه، ولا يمجدّه كما يمجد نفسه. «فَمَنْ أَجَلِ ذَا»؛ والإشارة إلى كلّ ما سبق، أي: من أجل كونه الرَّبِّ والمعبود بحقّ الذي يجب أن يُفرد بالحبِّ والذلِّ والخضوع، وأَنَّهُ - تبارك وتعالى - له الحمد والمجد والثناء.

«كُلُّ إِلَى اللَّهِ يَقْصِدُ»؛ أي: كلّ يتّجه إلى الله - سبحانه وتعالى - ذلاً وخضوعاً؛ لأنّه الكامل في جميع صفاته وأفعاله الَّذِي يَصْمُدُ الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم، وهذا فيه ذكرُ عبوديّة جميع الكائنات لله - سبحانه وتعالى - كما يوضح ذلكم في البيت الَّذِي بعده.

٦- تُسَبِّحُهُ الْأَمْلاكُ وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ حَقًّا وَتَحْمَدُ

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٠٢]، والصحيح أنّ هذا التَّسْبِيحَ والحمد لهذه الكائنات بلسانِ المقالِ والله - تبارك وتعالى - على كلّ شيءٍ قدير، ولقد رأى الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من ذلك آيات؛ فسمعوا حصياتٍ

تَسْبِيحٌ فِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ^(١)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ»^(٢)، فَهُوَ تَسْبِيحٌ وَحْدٌ وَثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِلِسَانِ الْمَقَالِ، وَلَيْسَ بِلِسَانِ الْحَالِ.

قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ: «وَالْتَّحْقِيقُ: أَنَّ تَسْبِيحَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ مَعَ دَاوُدَ الْمَذْكُورِ تَسْبِيحٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - يُجْعَلُ لَهَا إِدْرَاكَاتٍ تَسْبِيحُ بِهَا، يَعْلَمُهَا هُوَ - جَلَّ وَعَلَا - وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَمْنُ شَيْءٌ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْنُ مِنَ الْجِبَارِ لَمَّا يَنْفَجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَضُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٧٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الْأَنْعَامُ: ٧٢]، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» أَنَّ الْجَذْعَ الَّذِي كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لَمَّا انْتَقَلَ عَنْهُ بِالْخُطْبَةِ إِلَى الْمَنْبَرِ سُمِعَ لَهُ حَنِينٌ؛ وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ» وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَالْقَاعِدَةُ الْمَقْرَّرَةُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ نصوص الكتاب والسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا الْمَتَبَادَرِ مِنْهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ»^(٣).

(١) رَوَاهُ الْبُزَّارُ (٤٠٤٠، ٤٠٤٤)، وَالْخَلَّالُ فِي «السُّنَّةِ» (٣٥١)، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي «الْأَوْسَطِ» (٤٠٩٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مُسْلِمٌ (٢٢٧٧).

(٣) «أَضْوَاءُ الْبَيَانِ» (٦٧٢/٤).

٧- تَنْزَّهَ عَنْ نِدٍّ وَكُفٍّ^(١) مُمَائِلٍ وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ جَلَّ الْمَوْحِدُ^(٢)

«تَنْزَّهَ» أي: تقدَّس، والتَّنْزِيهِ: هو التَّقْدِيس والتَّسْبِيح والتَّبرُّة، وما يَنْزَهُ عنه الرَّبُّ - جَلَّ وعلا - يتلَخَّص في أمرين ذكرهما في هذا البيت:

- الأوَّل: «عَنْ نِدٍّ وَكُفٍّ مُمَائِلٍ» هذه ألفاظ جاءت في القرآن وهي متقاربة المعاني ولا ترادف بينها؛ فالله - عزَّ وجلَّ - مَنْزَهٌ عَنِ النَّدِّ وَالْكُفِّ والمثال كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سُورَةُ النِّعَمَةِ]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سُورَةُ الْإِنشَاءِ]، وقال - تبارك وتعالى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الْبُحُرُ: ١١] .

وضابطه: تنزيهه عن أن يُشاركه أحدٌ من الخلق في شيء من خصائصه التي لا تكون لغيره، وذلك كالزَّوجة، والشَّريك، والكفو، والظَّهير، والشَّفيع بدون إذن الله، والوليِّ من الدُّلِّ، فكلُّ ذلك يُنْزَهُ عنه الله - جَلَّ وعلا - وتقدَّس.

- والثَّاني: «وَعَنْ وَصْفِ ذِي النُّقْصَانِ» أي: ومما يَنْزَهُ الله - تبارك وتعالى - عنه النَّقَائِص والعيوب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [فُت: ٣٨]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [مُتَلَك: ٤٦]، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [تَه: ٤٤]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مُتَلَك: ٦٤]؛ هذا كله تنزيه لله - تبارك وتعالى - عن النَّقَائِص والعيوب.

وضابطه: أن يَنْزَهُ سبحانه عن كلِّ ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه

(١) في نسخة (ص): تقدَّس عن كفء ونَدٍّ.

(٢) في نسخة (ص): الممجَّد.

به رسوله ﷺ مما يضاد الصفات الكاملة كالنوم واللغوب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان، وعن احتياجه إلى طعام ورزق ونحو ذلك.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي «مجموع الفتاوى»^(١): «فهو منزّه عن النقص المضادّ لكماله، ومنزّه عن أن يكون له مثّل في شيء من صفاته، ومعاني التنزيه ترجع إلى هذين الأصلين».

«المَوْحَدُ»؛ أي: الذي يجب أن يُفرد بالتّوحيد العلميّ والعمليّ؛ لأنّ التّوحيد نوعان: علميّ وعمليّ؛ العلميّ: صفات الله وأفعاله يُفرد بها فلا يُجعل معه شريك في شيء من ذلك، والعمليّ: القُرْبَات والعبادات المطلوب من العبد فعلها أيضًا يُفرد بها - جلّ وعلا - فلا يُصرف لأحدٍ سواه شيء من ذلك.

٨- وَتُبْتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ جَمِيعَهَا وَتَبَرُّأُ مِنْ تَأْوِيلِ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ

«وَتُبْتُ أَخْبَارَ الصِّفَاتِ»؛ أي: نؤمن بها ونقرّها ولا ننكر شيئاً منها؛ فجميع الصفات الواردة في كتاب الله وسنة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - ثبتها ونقرّها بها ولا نجحد شيئاً منها، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «لا يُوصفُ الله إلّا بما وصفَ به نفسه، أو وصفَهُ به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث»^(٢).

«جَمِيعَهَا» فيه التّنبيه إلى أنّ باب الصفات واحد، والقول فيها واحد؛ فهي كلّها تُثبت لله - عزّ وجلّ - كما أثبتّها هو - جلّ وعلا - لنفسه، وكما أثبتّها له رسوله - صلوات الله وسلامه وبركاته عليه -.

(١) (٩٨/١٦).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٦/٥).

«وَنَبَرًا مِنْ تَأْوِيلٍ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ»؛ التَّأْوِيلُ: التَّحْرِيفُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:
«والتَّحْرِيفُ نَوْعَانِ: تَحْرِيفُ اللَّفْظِ، وَتَحْرِيفُ الْمَعْنَى، فَتَحْرِيفُ اللَّفْظِ: الْعُدُولُ بِهِ
عَنْ جِهَتِهِ إِلَى غَيْرِهَا، إِمَّا بزيادةٍ وَإِمَّا بِنقصانٍ، وَإِمَّا بِتغييرِ حَرَكَةِ إِعْرَابِيَّةٍ وَإِمَّا بِغَيْرِ
إِعْرَابِيَّةٍ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ.

وَأَمَّا تَحْرِيفُ الْمَعْنَى: وَهُوَ الْعُدُولُ بِالْمَعْنَى عَنْ وَجْهِهِ وَحَقِيقَتِهِ، وَإِعْطَاءُ
اللَّفْظِ مَعْنَى لَفْظٍ آخَرَ بِقَدْرِ مَا مُشْتَرِكٌ بَيْنَهُمَا»^(١).

و«الْجَحْدُ» الْإِنْكَارُ وَالتَّعْطِيلُ، أَي: نَتَبَرَّأُ مِنْ هَذَا الْمَسْلُوكِ؛ مَسْلَكَ التَّأْوِيلِ
لِلصِّفَاتِ الْمُفْضِي لِلْجَحْدِ وَالتَّعْطِيلِ، الَّذِينَ يُفَسِّرُونَهَا بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ قَصْدًا مِنْهُمْ
وَاقْتِرَاءً وَتَحْرِيفًا لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَالْغَرَضُ التَّكْذِيبُ وَالْجَحْدُ، فَنَكُونُ عَلَى
حَذَرٍ مِنْهُ وَبُعْدٍ عَنْهُ.

٩- فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ فَسَلَّمَ لِمَا قَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ

«فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ»؛ وَهَذَا فِيهِ إِطَالُ التَّكْيِيفِ، وَأَنَّ الْعُقُولَ مَهْمَا
بَلَغَتْ ذِكَاءً وَحِدَقًا وَفُطْنَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ تَبْلُغَ الْعِلْمَ بِكُنْهِ صِفَاتِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -،
وَكُلُّ كِمَالٍ يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَيَدُورُ فِي الْخَيَالِ فَاللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَجَلُّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -،
وَهُوَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَبْلُغَ كُنْهَ صِفَاتِهِ وَكَيْفِيَّةَ نَعْوَتِهِ عَقُولُ النَّاسِ مَهْمَا أُوتُوا
مِنَ الذِّكَاءِ، فَالْعُقُولُ عَاجِزَةٌ وَكَالَةٌ وَغَيْرُ مُطِيقَةٍ وَلَا قَادِرَةٍ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:
«فَلَيْسَ يُطِيقُ الْعَقْلُ كُنْهَ صِفَاتِهِ» أَي: الْعَقْلُ عَاجِزٌ عَنْ ذَلِكَ، وَ«الْكُنْهَ»: الْكَيْفُ، وَقَدْ
سُئِلَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقِيلَ لَهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿سُورَةُ طه﴾ [سُورَةُ طه] كَيْفَ اسْتَوَى؟

(١) «مختصر الصَّواعق المرسلة لابن القَيِّم» (ص: ٣٣٣) بتصرف.

فقال: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ»^(١).

فقوله: «الاستواء معلومٌ»، أي في لغة العرب.

وقوله: «والكيف مجهولٌ»، أي: كيفية استوائه - سبحانه وتعالى - لا يعلمُ

كُنْهها وكيفيتها إلا هو سبحانه.

وقوله: «الإيمانُ به واجبٌ»، لتكاثر الأدلة من الكتاب والسنة في إثبات

ذلك، والسؤال عنه - أي: عن الكيف - بدعةٌ، ففرّق مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ بين المعنى المعلوم

من هذه اللفظة، وبين الكيف الذي لا يعقله البشر.

وإجابة مالكٍ رَحِمَهُ اللهُ وغيره تعدُّ جواباً كافياً شافياً في جميع مسائل الصفات،

فإذا سُئِلَ أحدٌ عن المجيء أو النزول أو السَّمْع أو البصر أو غير ذلك فأجاب

بجواب مالكٍ رَحِمَهُ اللهُ كان جوابه وافياً، فيقال مثلاً: المجيء معلومٌ والكيف مجهولٌ،

وكذلك مَنْ سُئِلَ عن الغضب والرّضى والضّحك وغير ذلك، فمعانيها كلّها

مفهومة، وأمّا كيفيتها: فغير معقولة إذ تعقلُ الكيفية فرعُ العلم بكيفية الذات

وكُنْهها؛ فإذا كان ذلك غير معقول للبشر؛ فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟!

«فَسَلِّمْ لِمَا قَالِ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ»؛ لأنَّ الرّسالة من الله، وعلى الرّسول ﷺ

البلاغ، وعلينا التّسليم؛ فإنّه ﷺ قد بلّغ الرّسالة كما أمر ولم يكتُم منها شيئاً،

والواجبُ على كلّ مسلمٍ تصديقه في كلّ ما أخبر به، قال الزُّهري: «مِنَ اللَّهِ

الرّسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التّسليم»^(٢).

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (١٧/٤٢٤).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» في كتاب التّوحيد تعليقا، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ

بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - : «آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله على مُراد الله، وآمنتُ برسولِ الله، وبما جاء عن رسولِ الله على مُراد رسولِ الله»^(١).
فَمَنْ كان على قدم التَّسليم كان على سبيل النِّجاة والفَوْز، أَمَّا مَنْ كان -
والعياذ بالله - لا يسلِّم بل يتلقَّى الأخبار سواء أخبار الصِّفات أو غيرها
بالاعتراض أو الانتقاد أو نحو ذلك فهذا في سبيل هَلَكَة.

١٠- هُوَ الصَّمَدُ الْعَالِي لِعَظَمِ صِفَاتِهِ^(٢) وَكُلُّ جَمِيعِ الْخَلْقِ لِلَّهِ يَصْمُدُ^(٣)

«الصَّمَدُ» السَّيِّدُ الَّذِي كُمُلُ فِي سُودَدِهِ، وَمَنْ تَصْمَدُ نَحْوَهُ الْقُلُوبُ بِالرَّغْبَةِ
وَالرَّهْبَةِ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ خِصَالِ الْخَيْرِ فِيهِ، وَكَثْرَةِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ لَهُ، وَهُوَ اسْمٌ
مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَرَدَ فِي سُورَةِ الْإِحْلَاصِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ اللَّهُ
الصَّمَدُ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٢﴾ [سُورَةُ الْإِحْلَاصِ]، ثُمَّ بَيَّنَّ - رحمه الله تعالى - في تمام البيت معناه وأنَّ
الصمد يدلُّ على أمرين:

- الْأَوَّلُ: عَظَمُ صِفَاتِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ فَهُوَ «الصَّمَدُ لِعَظَمِ» - أي لعَظَمِ -
صِفَاتِهِ، فَهُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَهُ صِفَاتُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، الْعَظِيمُ الَّذِي
كُمُلُ فِي عِظَمَتِهِ، الْعَلِيمُ الَّذِي كُمُلُ فِي عِلْمِهِ، الْحَكِيمُ الَّذِي كُمُلُ فِي حِكْمَتِهِ،
فَالصَّمَدُ الَّذِي لَهُ الصِّفَاتُ الْعَظِيمَةُ الْجَلِيلَةُ.
- الثَّانِي: أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ لِلَّهِ تَصْمَدُ؛ أَي: تَفْزَعُ فِي حَاجَاتِهَا وَرَغَبَاتِهَا وَطَلِبَاتِهَا،
وَتَلْجَأُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ.

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٦/ ٣٥٤).

(٢) في نسخة (ص): العَظِيمُ صِفَاتِهِ.

(٣) في نسخة (ص): تَصْمَدُ.

فالصمد يدلُّ على هذين المعنيين، وأحدهما مترتب على الآخر.

١١- عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا وَقَدَرًا وَقَهْرُهُ^(١) قَرِيبٌ مُجِيبٌ بِالْوَرَى مُتَوَدِّدٌ

«عَلِيٌّ»؛ وهذا اسمٌ من أسماء الله - تبارك وتعالى - ورد في مواضع من القرآن منها آخر آية الكرسي: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ]، وهذا الاسم دالٌّ على ثبوت معاني العلوِّ لله - عزَّ وجلَّ -؛ فهو عليٌّ بذاته فوق مخلوقاته مستوٍ على عرشه استواءً يليقُ بجلاله وكماله وعظمته - سبحانه وتعالى -؛ ولهذا لما ذكر الناظم رَحِمَهُ اللهُ هذا الاسمَ أتبعه ببيان معناه قال: «عَلِيٌّ عَلَا ذَاتًا» هذا المعنى الأوَّل: أي علا بذاته - سبحانه وتعالى -.

والمعنى الثاني: «قَدَرًا»؛ أي: علا قدرًا؛ فهو - تبارك وتعالى - له الكمال والعظمة والجلال، وقد قال الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٧].

والمعنى الثالث: «قَهْرُهُ» أي: علوُّ القهر، وهذا أيضًا من معاني العلوِّ، وهو ثابت لله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٨].
فهذه ثلاثة معانٍ للعلوِّ يدلُّ عليها اسمُ الله - تبارك وتعالى - (العَلِيُّ).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «مدارج السَّالِكِينَ»^(٢): «من لوازم اسمِ العَلِيِّ العلوُّ المطلق بكلِّ اعتبار، فله العلوُّ المطلق من جميع الوجوه: علوُّ القدر، وعلوُّ القهر، وعلوُّ الذات، فمن جَحَدَ علوَّ الذات فقد جَحَدَ لوازمَ اسمه العَلِيِّ».

(١) في نسخة (ص): عليٌّ علوُّ الذاتِ والوصفِ ربُّنا.

(٢) (١/ ٣١).

﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾؛ وهذان اسمانِ لله - تبارك وتعالى -؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٨٦]، فالقريب اسمٌ من أسماء الله وهو دالٌّ على قُربه، والمراد بالقُرب: أي قُربه - سبحانه وتعالى - من أوليائه المقرَّبين وعباده المتّقين، وهو خاصٌّ بهم يسمعُ دعاءهم، ويحيبُ نداءهم، ويشيهم على طاعتهم وعبادتهم وقُرباتهم.

والمجيبُ: الَّذي يحيبُ مَنْ دعاه، قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [عَنْظَرٌ: ٦٠].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»^(١): «وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ وَصْفُ الرَّبِّ تَعَالَى بِالْقُرْبِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَصْلًا، بَلْ قُرْبُهُ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ خَاصٌّ لَا عَامٌّ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَةُ: ١٨٦]، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَرِيبٌ مِّنْ دَعَاةٍ، وَكَذَلِكَ مَا فِي «الصَّحَّاحِينَ» عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَكَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنْتِي رَاحِلَتِهِ»^(٢)، فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ» لَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ قَرِيبٌ إِلَى كُلِّ مُوجُودٍ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ١٠]، هُوَ كَقَوْلِ شُعَيْبٍ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [سُورَةُ هُودٍ: ١٠]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ مَقْرُونٌ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ أَرَادَ

(١) (٥/٤٩٣).

(٢) البخاري (٢٩٩٢، ٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

به قريبٌ مجيبٌ لاستغفار المستغفرين التائبين إليه كما أنّه رحيمٌ ودودٌ بهم، وقد قرّن القريبَ بالمجيب، ومعلومٌ أنّه لا يقال: إنّهُ مجيبٌ لكلّ موجود، وإنّما الإجابة لمن سأله ودعاه، فكذلك قُربه سبحانه وتعالى.

«بِالْوَرَى مُتَوَدِّدٌ» قال شيخُ الإسلام في «مجموع الفتاوى»^(١): «الودُّ: اللُّطف والمحبة؛ فهو يودُّ عباده المؤمنين، ويجعلُ لهم الودَّ في القلوب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَةِ: ١٦] قال ابنُ عباس وغيره: «يحبُّهم ويحبِّبهم إلى عباده»؛ ومن أسماؤه - تبارك وتعالى - الحسنى: «الودود»، وهو - جلَّ وعلا - «بِالْوَرَى مُتَوَدِّدٌ»: أي يتلطف ويتودّد إلى عباده بأصنافِ النعم وأنواعِ المنّ وتنوّع الألفاف والإحسان.

ومن عجبٍ أنّ العبد في غاية الفقر والاحتياج إلى الله - سبحانه وتعالى - ومع ذلك فإنّ كثيرًا من النّاس لا يحرصُ أن يتودّد إلى الله - عزَّ وجلَّ - ويطلبُ محابّه ورضاه - سبحانه وتعالى -، والرّبُّ - جلَّ وعلا - غنيٌّ عن العباد وعن طاعاتهم وعن عباداتهم، وهو - جلَّ وعلا - يتودّد إلى عباده بالنعم والمنّ والدعوة إلى التّوبة، وإذا تابَ التائبُ فرح - سبحانه وتعالى - بتوبته مع كمالِ غناه، فلا تنفعه طاعةٌ من أطاع، ولا تضرُّه معصيةٌ من عصى، قال ابنُ القيم في «الفوائد»^(٢): «ليس العجبُ من مملوك يتذلّلُ لله ويتعبّد له ولا يملُ خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنّما العجبُ من مالكٍ يتحبّبُ إلى مملوكه بصُنوفِ إنعامه، ويتودّدُ إليه بأنواعِ إحسانه مع غناه عنه».

(١) (٣٦٩/٣٥).

(٢) (ص: ٧١).

١٢- هُوَ الْحَيُّ وَالْقَيُّومُ ذُو الْجُودِ وَالْغِنَى وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ^(١) اللَّهُ تُسَنَدُ

«هُوَ الْحَيُّ وَالْقَيُّومُ» الْحَيُّ: الَّذِي لَهُ الْحَيَاةُ الْكَامِلَةُ الَّتِي لَمْ تُسَبِّقْ بَعْدَ لَمْ يَلْحَقْهَا فَنَاءٌ وَلَا يَعْزِيهَا نَقْصٌ، وَالْقَيُّومُ: الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْمُقِيمُ لَخَلْقِهِ، هُوَ دَالٌّ عَلَى كَمَالِ غِنَاهُ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهَذَانِ الْأَسْمَانِ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَرَدَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْهَا آيَةُ الْكَرْسِيِّ.

وإلى هذين الاسمين ترجع جميع الصفات؛ فالصفات الذاتية ترجع إلى اسمه «الحي»، والصفات الفعلية ترجع إلى اسمه «القيوم»، قال ابن القيم في «زاد المعاد»^(٢): «فإنَّ صفةَ الحياة متضمنةٌ لجميع صفات الكمال مستلزمةٌ لها، وصفةُ القيومية متضمنةٌ لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسمُ الله الأعظم الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، هُوَ اسْمُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ».

«ذُو الْجُودِ» أَي: الْإِنْعَامُ وَالْإِكْرَامُ وَالتَّفَضُّلُ وَالْإِحْسَانُ، وَهُوَ - جَلَّ وَعَلَا - أَجُودُ الْأَجُودِينَ وَأَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَكُلُّ جُودٍ وَفَضْلٍ وَكَرَمٍ فَهُوَ مِنْ مَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [الْحَقْلُ: ٥٣]، وَقَالَ:

﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [الْحَقْلُ: ١٨]، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»^(٣): «الْجُودُ كُلُّهُ لَهُ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيْهِ أَنْ يَجُودَ عَلَى عِبَادِهِ، وَيُوسِعَهُمْ فَضْلًا، وَيَغْمُرَهُمْ إِحْسَانًا وَجُودًا، وَيُتِمَّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَيُضَاعِفَ لَدَيْهِمْ مَنَّتَهُ، وَيَتَعَرَّفَ إِلَيْهِمْ بِأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَيَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ وَأَلَاءِهِ، فَهُوَ الْجَوَادُ لِدَايَتِهِ، وَجُودُ

(١) فِي نَسْخَةِ (ص): الْجُود.

(٢) (٢٠٤/٤).

(٣) (٢١١/١).

كُلُّ جَوَادٍ خَلَقَهُ اللَّهُ وَيَخْلُقُهُ أَبَدًا أَقْلٌ مِنْ ذَرَّةٍ بِالْقِيَاسِ إِلَى جُودِهِ، فليس الجوادُ على الإطلاق إلَّا هو، وجُود كُلِّ جَوَادٍ فَمِنْ جُودِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ وَالْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ، فوقَ ما يخطر ببال الخلق أو يدور في أوهامهم.

«وَالْغِنَى» أي: هو - سبحانه وتعالى - غنيٌّ ذاتيًّا عن جميع خلقه، وقد قال

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ [نمل: ١٥]، غنيٌّ عن عباده لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معاصيهم، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

«وَكُلُّ صِفَاتِ الْحَمْدِ لِلَّهِ تُسَنَدُ» أي: أنَّ المحامد كلها ثابتة لله تُضاف إليه -

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - و«تُسَنَدُ»؛ له الحمد على أسمائه، وله الحمد على صفاته، وله الحمد على أفعاله، وله الحمد على نعمه ومننه وأفضاله وعطاياه، فالحمد كله لله رب العالمين.

١٣- أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَبِرًّا وَإِحْسَانًا فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ

«أَحَاطَ بِكُلِّ الْخَلْقِ»؛ من أسمائه الحسنى - تبارك وتعالى - «المحيط» أي:

الذي له جميع معاني الإحاطة.

«عِلْمًا» فـ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [نمل: ٣]، يعلم

ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ [شورى: ١٢].

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

«وَقُدْرَةً» فلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾ [سُورَةُ النِّعَمِ]، ماضٍ فِيهِمْ حُكْمُهُ، نافذةٌ مَشِئَتُهُ، وهو - تبارك وتعالى - على كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

«وَبِرًّا وَإِحْسَانًا»؛ فكلُّ فَضْلٍ بِالْعِبَادِ وَإِنْعَامٍ وَإِكْرَامٍ مِنْ اللَّهِ - سبحانه وتعالى -، هو الَّذِي تَفَضَّلَ بِهِ وَأَنْعَمَ وَتَكَرَّمَ - جَلَّ وَعَلَا -، شَمَلَ الْكَائِنَاتِ بِأَسْرَها بِرِّهْ وَمَنْهْ وَعَطَاهْ، فهو مُوَلِي النِّعَمِ، واسعُ الْعَطَاءِ، دائِمُ الْإِحْسَانِ، لم يَزَلْ ولا يَزَالُ بِالْبِرِّ وَالْعَطَاءِ مَوْصُوفًا، وبِالْمَنْ وَالْإِحْسَانِ مَعْرُوفًا، تَفَضَّلَ عَلَى الْعِبَادِ بِالنِّعَمِ السَّابِغَةِ، وَالْعَطَايَا الْمُتَتَابِعَةِ، وَالْأَلَاءِ الْمُتَنَوِّعَةِ، ليس لجوده وبرِّه وكرمه مقدار، فهو سبحانه ذو الْكَرَمِ الْوَاسِعِ وَالنَّوَالِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْعَطَاءِ الْمُدْرَارِ.

«فَإِيَّاهُ نَعْبُدُ»؛ أي: هذا الْمَوْصُوفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَنْعُوتِ بِهَذِهِ النُّعُوتِ «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»: أي نخُصُّه بِالْعِبَادَةِ وَنُقَرِّدُهُ بِالْحُبِّ وَالذِّلِّ وَالطَّاعَةِ، كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سُورَةُ الْفَاتِحَةِ]؛ أي: نَعْبُدُكَ وَلَا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، وَنَسْتَعِينُ بِكَ وَلَا نَسْتَعِينُ بِغَيْرِكَ.

١٤- وَيُبْصِرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلَّهَا وَيَسْمَعُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ وَيَشْهَدُ

«وَيُبْصِرُ ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلَّهَا»؛ فِيهِ إِثْبَاتُ أَنَّ اللَّهَ - سبحانه وتعالى - بَصِيرٌ بِبَصَرٍ يَرَى - سبحانه وتعالى - بِهِ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ وَكُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ، يَرَى «ذَرَّاتِ الْعَوَالِمِ كُلَّهَا» أي: الْأُمُورَ الصَّغِيرَةَ الدَّقِيقَةَ الَّتِي لَا يَرَاهَا الْإِنْسَانُ بِبَصَرِهِ؛ فَاللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يَرَى ذَلِكَ كُلَّهُ فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ!! وهو - سبحانه وتعالى - يَرَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّودَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ

الظَّلماء، ونملةٌ بهذه الصَّفة - سوداء وفي ليلة ظلماء وعلى صخرة صمَّاء - مَنْ يراها من النَّاس حتَّى لو دنا واقتربَ منها؟ وربُّ العالمين - جلَّ وعلا - يراها من فوق سبع سموات؛ بل ويرى كلَّ جزء من أجزائها وجريان القُوت في ذلك الجسم النَّحيل، فلا يعزُّبُ عنه - سبحانه وتعالى - شيءٌ.

قال ابنُ القيم في «طريق الهجرتين»^(١): «البصير الَّذي لكمال بصره يرى تفاصيل خَلْق الدَّرة الصَّغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخَّها وعروقها، ويرى ديبها على الصَّخرة الصَّماء في اللَّيلة الظَّلماء، ويرى ما تحت الأرضين السَّبع كما يرى ما فوق السَّموات السَّبع...».

«وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ» فيه إثباتُ أَنَّ الله - جلَّ وعلا - سميعٌ بسمع، يسمعُ جميع الأصواتِ ما كان منها عاليًا أو خافتًا ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] كلُّه سواءٌ عند الله ربِّ العالمين، من أخفى القول وكتمه، ومن جهر به وأظهره، فالسر والجهر عند الله سواء، وأيضا في المعلومات الغيب والشَّهادة عنده سواء، والسرُّ والعلانية عنده سواء - تبارك وتعالى -، لا تخفى عليه - عزَّ وجلَّ - خافيةٌ في الأرض ولا في السَّماء.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «السَّمِيع الَّذِي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهره، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلفُ عليه أصواتُ الخلق ولا تشبهُ عليه ولا يشغله منها سمعٌ عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه كثرةُ السَّائلين، قالت عائشة: «الحمد لله الَّذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلةُ تشكو إلى رسولِ الله ﷺ وإنَّه ليخفى عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي

(١) (ص: ٢٢٣-٢٢٤).

تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
[سُورَةُ الْحَجَّاتِ ١] (١).

ولو اجتمع العبادُ أجمعون من أولهم إلى آخرهم، إنسهم وجنهم، ذكورهم وإناثهم، صغارهم وكبارهم في صعيدٍ واحد، ودَعَوْا في لحظةٍ واحدة؛ كُلٌّ بلهجة، وكلٌّ بحاجة لسمع - تبارك وتعالى - أصواتهم أجمعين دون أن يختلط عليه صوت بصوتٍ أو لغة بلغة أو حاجةٌ بحاجة، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ» (٢).

«وَيَشْهَدُ» أي: ويطلع عليهم، ومن أسمائه - تبارك وتعالى - الحسنى:

«الشَّهِيد»، قال الله تعالى: ﴿وَكُفِّنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [سُورَةُ الْفَتَنِ ٢٨]، ومن معاني الشَّهِيد: المطلع على العباد وعلى أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فلا تخفى عليه - تبارك وتعالى - منهم خافية.

١٥- لَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْمُحِيطُ بِمُلْكِهِ وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ

«لَهُ الْمُلْكُ وَالْحَمْدُ الْمُحِيطُ بِمُلْكِهِ» له - تبارك وتعالى - الملك، ومُلْكُهُ لجميع المخلوقات ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [التَّحْوِيتُ : ٨٥]، له ملكٌ كلُّ شيء - تبارك وتعالى - له الملك والحمد، إذا كان وحده - تبارك وتعالى - متفردًا بالملك، فهو المستحقُّ وحده أن يُفْرَدَ بالحمد؛ لأنَّ الْمُلْكَ كُلَّهُ لله فالحمدُ كُلُّهُ له - سبحانه وتعالى -.

(١) «طريق الهجرتين» (ص: ٢٢٤).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

قال ابن القيم: «والمقصود أنَّ الملك والحمد في حقِّه مُتلازمان، فكلُّ ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده، فهو محمودٌ في ملكه، وله الملك والقُدرة مع حمده، فكما يستحيلُ خروج شيءٍ من الموجودات عن ملكه وقدرته، يستحيلُ خروجها عن حمده وحكمته؛ ولهذا يحمدُ سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لينبّه عباده على أنَّ مصدرَ خلقه وأمره عن حمده؛ فهو محمودٌ على كلِّ ما خلقه وأمر به حمدٌ شُكرٌ وعبوديَّةٌ، وحمدٌ ثناءٌ ومدحٌ»^(١).

«وَحِكْمَتُهُ الْعُظْمَى بِهَا الْخَلْقُ تَشْهَدُ» أي: الخلق يشهد بأنَّ الله - سبحانه وتعالى - حكيمٌ في خلقه، حكيمٌ في تدبيره، لا يفعلُ شيئاً إلَّا عن حكمة؛ فأفعاله كلّها صادرةٌ عن حكمةٍ، وهو - جلَّ وعلا - منزَّهٌ عن العبث واللَّهو والباطل واللَّعب؛ تنزّه وتقدّس عن ذلك كلّهُ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [شُورَةُ الْفَاعِلِينَ: ٣٦]، فالله - جلَّ وعلا - منزَّهٌ عن ذلك، فأفعاله كلّها عن حكمة، والخلق كلّهم يشهدون لله بذلك إلَّا مَنْ فَسَدَ وَضِلَّ عن سواء السَّبيل.

والحكمةُ تتضمَّنُ كمالَ علمه وخبرته، وأنَّه أمرٌ ونهى وخلقٌ وقدرٌ لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحقُّ عليها كمالُ الحمد، فلا يفعلُ خلافَ موجبِ حمده وحكمته، ولا يأمرُ بخلافٍ موجبِ حمده وحكمته.

١٦- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى كَمَا قَالَ الْمَبْعُوثُ بِالْحَقِّ أَحْمَدُ

«وَنَشْهَدُ» أي: نقرُّ ونؤمن.

«أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي الدُّجَى» و«الدُّجَى»: الظُّلْمَةُ، والمراد إثبات نزول الله - تبارك

(١) «طريق المهجرتين» (ص: ٢١٩).

وتعالى - في ثلث الليل الآخر، «كَمَا قَالَ الْمُبْعُوثُ بِالْحَقِّ أَحْمَدُ» يشير إلى الحديث الذي تواتر نقله عن النبي ﷺ أنه قال: «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(١)؛ فالنُّزُولُ حَقٌّ ثَابِتٌ لله، وقد اتَّفَقَ السَّلَفُ على أَنَّ «النُّزُولَ» فعلٌ يفعلُهُ الرَّبُّ - تبارك وتعالى - كما يليقُ بجلاله، ولا تُعَلَمُ كَيْفِيَّتُهُ، فإنَّ الله ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا قال قائلٌ: كيفَ ينزلُ ربُّنا إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلمُ كَيْفِيَّةَ ذاته، قيل له: ونحنُ لا نعلمُ كَيْفِيَّةَ نزوله؛ إذ العلمُ بكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يستلزمُ العلمَ بكَيْفِيَّةِ الموصوفِ.

١٧- وَنَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ تَهْدِي وَتُرْشِدُ^(٢)

«وَنَشْهَدُ» أي: ونقرُّ أيضًا ونؤمن.

«أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ» أي: بعثَ رُسُلَهُ الكرامَ مبشِّرينَ ومنذرينَ، أَرْسَلَهُمْ «بِآيَاتِهِ» والآية: هي العلامةُ الظَّاهِرةُ والحجَّةُ البَيِّنَةُ الدَّالَّةُ على الله - سبحانه وتعالى - وهي نوعان: آياتٌ متلوَّةٌ؛ وإليها يشيرُ النَّاطِمُ، وآياتٌ مشاهدَةٌ مرئيَّةٌ وهي مخلوقاتُ الله - سبحانه وتعالى -.

«بِآيَاتِهِ» أي: بوحْيِهِ المنزَّلِ ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٣) [سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ]، فنؤمنُ بذلك، ونؤمنُ أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغُوا الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وبلَّغُوا وَحْيَ اللَّهِ - تبارك وتعالى - وتنزيله إلى النَّاسِ كما أمرَهُمُ اللَّهُ - تبارك وتعالى -.

(١) البخاري (١١٤٥).

(٢) في نسخة (ص): بِآيَاتِهِ لِلْخَلْقِ جَلَّ الموحِد.

«لِلْخَلْقِ»؛ ﴿لَيْتَ لَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ : ١٦٥]، إقامة للحجة، وإزالة للمعذرة، وإبانة للسبيل.

ثم بين مهمة الرُّسل فقال: «تَهْدِي وَتُرْشِدُ»؛ والمراد بالهداية: أي هداية الدلالة والإرشاد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سُورَةُ الشُّورَى : ٥٢] أي: تدلُّ وترشد؛ أمّا هداية التوفيق فهذه ليست إلا الله - تبارك وتعالى - رب العالمين كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البَقَرَةُ : ٢٧٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الْقَصَصُ : ٥٦].

١٨- وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ بِحِكْمَتِهِ جَلَّ الْعَظِيمُ الْمُوَحِّدُ^(١)

«وَفَاضَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ»؛ أي: أن الله - سبحانه وتعالى - من حكمته - ولا يفعل إلا عن حكمة - فاضل بين الرُّسل؛ أي: لم يجعلهم في الفضل على رتبة واحدة بل فضل بعضهم على بعض، كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَامُ : ٥٥]؛ وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿لَكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البَقَرَةُ : ٢٥٣]، قال الشيخ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: «يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِمَا خَصَّهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ بِإِيحَائِهِ وَإِرْسَالِهِمْ إِلَى النَّاسِ، وَدَعَائِهِمْ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا أَوْدَعَ فِيهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ وَالنَّفْعِ الْعَامِّ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ كَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ خَصَّهُ بِالْكَلامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ عَلَى سَائِرِهِمْ دَرَجَاتٍ كَنَبِيِّنَا ﷺ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا تَفَرَّقَ فِي غَيْرِهِ،

(١) في نسخة (ص): بحكمته العظمى تعالى المفرد.

وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين^(١).

«وَالْخَلْقِ كُلِّهِمْ» أي: وفاضل بين الخلق كلهم، فالتفاضل ثابت بين الرسل، وأيضا بين الخلق ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الأنزل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْطَانًا﴾ [الحجرات: ٣٢]، فالمفاضلة ثابتة بين الخلق فليسوا على رتبة واحدة، ولهذا تفاضلت المنازل والدرجات يوم القيامة. «بِحِكْمَتِهِ» أي: أن هذا التفضيل صادر عن حكمة، فالله - جلّ وعلا - منزّه أن يصدر عنه شيء عن غير حكمة.

«جَلَّ»؛ أي: تنزه وتقدس - سبحانه وتعالى -.

«الْعَظِيمُ»؛ وهو اسم من أسمائه - تبارك وتعالى -، فيه ثبوت العظمة له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله. «الْمُوَحَّدُ» أي: الذي يجب أن يفرد بالتوحيد وأن يُخلص له الدين، وأن لا يُجعل معه شريك.

ثم لما ذكر المفاضلة بين الرسل وبين الخلق بين أن أفضل الخلق درجة وأعلاهم مكانة سيّد ولد آدم نبينا محمّد - صلوات الله وسلامه عليه - قال:

١٩- فَأَفْضَلُ^(٢) خَلْقِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ نَبِيُّ الْهُدَى وَالْعَالَمِينَ مُحَمَّدٌ

فهو أفضل الخلق أجمعين وسيّد ولد آدم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومحمّد ﷺ أفضل الرسل باتفاق المسلمين،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٩).

(٢) في نسخة (ص): وأفضل.

لكن وقع نزاع هل هو أفضل من جملتهم؟ قطع جماعة بأنه أفضل كما أن صديقه أبا بكر وزن إيمانه بإيمان جميع الأمة فرجح^(١).

«بَيُّهُ الْهُدَى»؛ أي: الذي بعثه الله - سبحانه وتعالى - بالحق والهدى.

«والعالمين» أي: الذي بعثه الله - سبحانه وتعالى - رحمة للعالمين ﴿وَمَا

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ].

٢٠- وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمَنُ أَصْحَابَهُ الْأُولَى أَقَامُوا الْهُدَى وَالْدِّينَ حَقًّا وَمَهَّدُوا

«وَخَصَّ لَهُ الرَّحْمَنُ أَصْحَابَهُ الْأُولَى» أي: أن الله - سبحانه وتعالى - اصطفى له

صحاباً كراماً قاموا بنصرته ومؤازرته - صلوات الله وسلامه عليه -، وكانوا خير الناس وأفضل العالمين وأفضل أُمم النبيين، لا كان ولا يكون مثلهم بعد النبيين،

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [الْعَنْكَرَانِ: ١١٠]، وجاء

في الحديث عنه صلوات الله وسلامه عليه: «أَلَا إِنَّكُمْ تُوَفُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»^(٢).

«الأولى» بمعنى الذين، كقولك: هم الأولى قالوا كذا؛ أي الذين.

«أَقَامُوا الْهُدَى وَالْدِّينَ حَقًّا» بجهودٍ عظيمة وأعمالٍ متوافرة قدمها هؤلاء

الصَّحْبُ نَشْرًا وإبلاغًا لدين الله - تبارك وتعالى -، فكانوا أحقَّ الناس وأولاهم

وأحظاهم نصيبًا بدعوة نبيِّنا عليه الصَّلَاة والسَّلَام التي قال فيها: «نَضَّرَ اللَّهُ أُمَّرَاءَ

سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا وَحَفِظَهَا وَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»^(٣).

(١) «المستدرك على مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية» (١/١١٨).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢٠٠٢٩).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٦٥٨)، وصحَّحه الألباني.

«وَمَهَّدُوا»؛ أي: هيَّؤوا ووطَّؤوا، وتمهيد الطريق: توطئته، وهم الذين بدؤوا على إثر النبي ﷺ بتوطئة الطريق - طريق الإسلام - لأمة الإسلام؛ فجزاهم عن أمة الإسلام خير الجزاء، رضي الله عنهم وأرضاهم.
ثم بيّن الواجب تجاه الصحابة فقال:

٢١- فَحُبُّ جَمِيعِ الْأَلِّ وَالصَّحْبِ عِنْدَنَا مَعَاشِرَ أَهْلِ الْحَقِّ فَرَضٌ مُؤَكَّدٌ

أي: حبُّ هؤلاء الصحب أجمعين، وحبُّ آل بيت النبي ﷺ دينٌ وقربةٌ يتقرَّب بها المسلمون إلى الله - سبحانه وتعالى -، وبغضهم نفاقٌ وطغيان، مع سلامة الصدور تجاههم، وقد قال الله - سبحانه وتعالى - في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٠﴾ [سُورَةُ الْحَشْرِ].

٢٢- وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ كَلَامَهُ هُوَ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى جَمِيعًا مُجَوَّدٌ^(١)

«وَمِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْحَقِّ» أي: ومما يدين به أهل الحق ويعتقدونه ويؤمنون به.
«أَنَّ كَلَامَهُ» أي: الله - عز وجل -، وإضافة الكلام إليه - عز وجل - إضافة وصف.
«هُوَ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى» فالكلام المضاف إلى الله - سبحانه وتعالى - هو اللفظ والمعنى، ليس الكلام الألفاظ دون المعاني، ولا المعاني دون الألفاظ؛ وهذا هو الصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد، والبخاري صاحب «الصحيح» في كتاب «خلق أفعال العباد» وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم أتباع النصوص

(١) في نسخة (ص):

وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّهُ هُوَ الْمَحْفُوظُ جَمِيعًا مُجَوَّدٌ.

الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاماً لغيره، ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط، ولا المعاني فقط، كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد؛ بل مجموعهما»^(١).

«مُجَوِّدٌ» أي: محكمٌ ومتقنٌ بالفاظه ومعانيه ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سُورَةُ فَصَّلَاتٍ].

٢٣- وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ وَأَنْتَى لَخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللَّهِ إِذْ هُوَ أَعْجَدُ
«وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ» أي: أن كلام الله - عز وجل - صفة من صفاته، وإضافته إليه إضافة وصف وليست إضافة خلق، فالقرآن كلام الله - جل وعلا - ليس بمخلوق.
ثم ذكر على ذلك شاهداً من الشواهد وبرهاناً من البراهين، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:
«وَأَنْتَى لَخَلْقِهِ بِقَوْلٍ كَقَوْلِ اللَّهِ» أي: أن المخلوقين مهما أوتوا من الفصاحة والبلاغة والبيان فأنى لهم بقول كقول الله!! وقد تحدى الله - عز وجل - الجن والإنس لو اجتمعوا جميعاً أن يأتوا بسورة من مثله أو أن يأتوا بمثله، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سُورَةُ هُودٍ]، وقال - جل وعلا -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

شَهِدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ].

«إِذْ هُوَ أَعْجَدُ» أي: قول الله - سبحانه وتعالى - أعجبد، والمجدد: هو السَّعة والكمال والعظمة، والله - سبحانه وتعالى - وصف القرآن بالمجدد؛ قال - تبارك وتعالى -: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٦١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٦٢﴾﴾ [سُورَةُ الْبُرُوجِ]، فوصف القرآن بذلك، والمجدد معناه السَّعة، والسَّعة هنا سعة أوصاف القرآن الكاملة العظيمة الجليلة؛ فالقرآن أعجبد: أي أعظم وأجل وأكبر من أن يأتي أحد من البشر بمثله.

٢٤- وَنَشْهَدُ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْهَدُ

«وَنَشْهَدُ» أي: نؤمن ونقرُّ.

«أَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ كُلَّهُ بِتَقْدِيرِهِ» فمن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة الإيَّمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، وفي حديث جبريل المشهور ذكر أصول الإيَّمان في قوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(١)، فالقدر حلوه ومره، خيره وشره، كله من الله - تبارك وتعالى -، فالله - عز وجل - خالق كل شيء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٦١﴾﴾ [سُورَةُ الْغَاثَةِ]، وقال - جل وعلا -: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ الْأَنْجَازِ]، وقال - جل وعلا -: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ].

قال ابن القيم في «الفوائد»^(٢): «أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتقن حينئذ أن الحسنات من نعمه، فتشكره عليها، وتتضرع

(١) مسلم (٨).

(٢) (ص: ١٨١).

إليه أن لا يقطعها عنك، وأنَّ السَّيِّئَاتِ مِنْ خِذْلَانِهِ وَعَقُوبَتِهِ، فَنَبْتَهِلْ إِلَيْهِ أَنْ يُحَوِّلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَلَا يَكِلْكَ فِي فِعْلِ الْحَسَنَاتِ وَتَرْكِ السَّيِّئَاتِ إِلَى نَفْسِكَ».

«وَالْعَبْدُ يَسْعَى وَيَجْتَهِدُ» فَإِيَانُ الْعَبْدِ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِقَدْرِ اللَّهِ لَا يَعْنِي أَنْ تَعَطَّلَ الْأَعْمَالُ، وَتُهْمَلَ الْأَسْبَابُ، وَأَنْ يُتَوَقَّفَ عَنْ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ؛ بَلْ مَعَ الْإِيَانِ بِالْقَدْرِ وَاعْتِقَادِ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فالواجبُ على العبد أن يسعى ويجهد، ومعنى يجهد: أي يجدُّ ويجتهد في بذل الأسباب في الطَّاعَاتِ وَالْعِبَادَاتِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

ففي هذا البيتِ جمع بين أصليْن عَظِيمَيْن، وَأَسَاسَيْنِ مُتَيْنَيْنِ فِي بَابِ الْإِيَانِ بِالْقَدْرِ أَلَا وَهُمَا: الْإِيَانُ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِأَقْدَارِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وبذُلِ الْأَسْبَابِ. وقد جمع النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١)، وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ»^(٢).

٢٥- وَإِيْمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ مِنْ الْخَيْرِ وَالطَّاعَاتِ فِيهَا نُقْيَدُ^(٣)

«وَإِيْمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ» هذا هو حَدُّ الْإِيَانِ وَتَفْسِيرُهُ الْجَامِعُ لِمَا يَحْتَوِيهِ الْإِيَانُ وَيَتَضَمَّنُهُ، فَالْإِيَانُ الَّذِي خَلَقْنَا اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لِتَحْقِيقِهِ وَأَوْجَدْنَا لِلْقِيَامِ بِهِ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ، أي: مَكُونٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَلَيْهَا قِيَامُ الْإِيَانِ، فَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ؛ لَيْسَ الْإِيَانُ قَوْلٌ بَلَا عَمَلٍ، وَلَا أَيْضًا عَمَلٌ بَلَا نِيَّةٍ، بَلْ الْإِيَانُ قِيَامُهُ عَلَى هَذِهِ الثَّلَاثِ: الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالنِّيَّةِ.

(١) البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) مسلم (٢٦٦٤).

(٣) في نسخة (ص): فيه تقيد.

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ^(١): «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، وكان مَنْ مضى من سلفنا لا يفرّقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنّا الإيمان اسمٌ يجمع هذه الأديان اسمُها، ويصدّقه العمل، فمَنْ آمَنَ بلسانه وعرفَ بقلبه، وصدّقَ بعمله فتلك العروة الوثقى التي لا انفصامَ لها، ومَنْ قالَ بلسانه، ولم يعرفَ بقلبه، ولم يصدّقه بعمله، لم يُقبلَ منه، وكان في الآخرة من الخاسرين».

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ^(٢): «كان الفقهاء يقولون: لا يستقيم قولٌ إلا بعمل، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ إلا بنية، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بموافقة السنة».

وقال الأجرى رَحِمَهُ اللهُ في «الشريعة»^(٣) في «باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب وإقراراً باللسان وعملٌ بالجوارح، لا يكون مؤمناً إلا بأن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث»: «اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أنّ الذي عليه علماء المسلمين أنّ الإيمان واجبٌ على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقراراً باللسان، وعملٌ بالجوارح، ثمّ اعلّموا أنّه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتّصديق إلا أن يكونَ معه الإيمان باللسان نطقاً، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتّى يكونَ عملٌ بالجوارح، فإذا كُملت فيه هذه الثلاث الخصال كان مؤمناً، دلّ على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين».

(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطّة (٢/ ٨٠٧).

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطّة (١/ ٣٣٣، ٢/ ٨٠٧).

(٣) (١/ ٢٧٤).

وقال شيخ الإسلام: «قال حنبل: «حدّثنا الحميدي قال: وأُخبرتُ أنّ ناسًا يقولون: مَنْ أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَلَمْ يَفْعَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا حَتَّى يَمُوتَ، وَيَصِلِيَّ مُسْتَدْبِرَ الْقَبْلَةِ حَتَّى يَمُوتَ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مَا لَمْ يَكُنْ جَاحِدًا إِذَا عُلِمَ أَنَّ تَرْكَهُ ذَلِكَ فِيهِ إِيمَانُهُ إِذَا كَانَ مَقْرَأًا بِالْفَرَائِضِ وَاسْتِقْبَالَ الْقَبْلَةِ؛ فَقُلْتُ: هَذَا الْكُفْرُ الصُّرَاحُ وَخِلَافَ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَعِلْمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْآيَةُ، وَقَالَ حَنْبَلٌ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: مَنْ قَالَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَرَدَّ عَلَى أَمْرِهِ، وَعَلَى الرَّسُولِ مَا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ»^(١).

«مِنَ الْخَيْرِ» الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ هُنَا مُتَعَلِّقٌ بِمَا سَبَقَ، أَيْ إِيمَانُنَا هُوَ أَقْوَالُ الْخَيْرِ وَأَعْمَالُ الْخَيْرِ وَالنِّيَّاتُ الْخَيْرَاتُ الصَّالِحَاتُ؛ هَذَا هُوَ إِيمَانُنَا قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَنِيَّةٌ مِنَ الْخَيْرِ. «وَالطَّاعَاتِ فِيهَا تَقْيِيدٌ» الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «فِيهَا» عَائِدٌ إِلَى النِّيَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّ كُلَّ طَاعَةٍ لَتَكُونُ مُتَقَبَّلَةً مُرَضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُشْكُورَةً عِنْدَهُ؛ لِأَنَّ تَقْيِيدَ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ بِأَنْ يُقْصَدَ بِفِعْلِ الطَّاعَةِ التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كَمَا قَالَ - جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ].

٢٦- وَيَزِدَادُ بِالطَّاعَاتِ مَعَ تَرْكِ مَا نَهَى^(٢) وَيَنْقُصُ بِالْعِصْيَانِ جَزْمًا^(٣) وَيَفْسُدُ «وَيَزِدَادُ» أَيْ الْإِيمَانُ «بِالطَّاعَاتِ»، فَكَلَّمَا زَادَ الْعَبْدُ مِنَ الطَّاعَةِ زَادَ إِيمَانُهُ؛ لِأَنَّ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠٩/٧).

(٢) فِي نَسْخَةِ (ص): مَعَ تَرْكِ مَنْكَرٍ.

(٣) فِي نَسْخَةِ (م): حَقًّا.

الطَّاعَاتِ إِيْمَانٍ، وَزِيَادَتِهَا زِيَادَةُ إِيْمَانٍ، وَنَقْصَانُهَا نَقْصَانُ إِيْمَانٍ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِلِإِيْمَانٍ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيْمَانِ»^(١)، فَالِإِيْمَانُ شَعْبٌ كَثِيرَةٌ وَخَصَالٌ عَدِيدَةٌ، وَكُلَّمَا أَزْدَادَ الْعَبْدُ مِنَ خَصَالِ الْإِيْمَانِ زَادَ إِيْمَانُهُ بِذَلِكَ، «مَعَ تَرْكِ مَا نَهَى» فَكَمَا أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ فَإِنَّهُ كَذَلِكَ يَزِيدُ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي، وَ«مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْنيهِ»^(٢)، فَإِذَا تَجَنَّبَ الْعَبْدُ الْمَعَاصِي تَقَرَّبًا إِلَى اللَّهِ وَطَلَبًا لِرِضَاهُ وَخَوْفًا مِنْ عَقُوبَتِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَهَذَا التَّرْكُ بِحَدِّ ذَاتِهِ يُعَدُّ إِيْمَانًا، وَيَزِدُّ الْإِيْمَانَ بِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ لَذَلِكَ الْحَدِيثَ الْمَخْرَجَ فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٣) بِمَعْنَى أَنَّ فَعْلَهُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ نَقْصٌ فِي إِيْمَانِهِ، وَمَفْهُومُ الْمَخَالَفَةِ لَذَلِكَ: أَنَّ تَرْكَهُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَطَلَبًا لِرِضَاهُ زِيَادَةٌ فِي إِيْمَانِهِ.

فَإِذَا؛ الْإِيْمَانُ يَزِيدُ بِفَعْلِ الطَّاعَاتِ، وَيَزِيدُ أَيْضًا بِتَرْكِ الْمَعَاصِي تَقَرُّبًا بِهَذَا التَّرْكِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِفَعْلِ الْأَوَامِرِ، وَيُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ أَيْضًا بِتَرْكِ النَّوَاهِي.

«وَيَنْقُصُ بِالْعَصِيَانِ جَزْمًا» أَي: يَقِينًا وَحَقًّا لَا رَيْبَ فِي ذَلِكَ، فَالْمَعَاصِي تُنْقُصُ الْإِيْمَانَ وَتُضْعِفُهُ، وَكَمَا أَنَّ الْإِيْمَانَ يَزِيدُ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ بِمَعَاصِيهِ، قَدْ

(١) مُسْلِمٌ (٣٥).

(٢) «جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ» (٢٣١٧)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

(٣) الْبُخَارِيُّ (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، وَغَيْرُهُمَا)، وَمُسْلِمٌ (٥٧).

جاء عن عُمَيْرِ بْنِ حَبِيبِ الْخُطَمِيِّ قَالَ: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ قِيلَ: مَا زِيَادَتُهُ وَنَقْصَانُهُ؟ قَالَ: «إِذَا ذَكَرْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَحَمَدْنَاهُ وَسَبَّحْنَاهُ فَتَلَكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا أَغْفَلْنَا وَضَيَّعْنَا وَأَسَانَا فَذَلِكَ نَقْصَانُهُ»^(١).

«وَيَفْسُدُ» أَي: إِذَا زَادَ الْكَيْلُ مِنَ الْمَعَاصِي فَسَدَ الْإِيمَانُ.

فَفِي هَذَا الْبَيْتِ بَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَيَقْوَى وَيَضْعُفُ، وَأَنَّ لَزِيَادَتِهِ أَسْبَابًا وَلِنَقْصَانِهِ أَسْبَابًا أَلْمَحَ إِلَيْهَا رَحِمَهُ اللَّهُ هُنَا، وَبَيْنَهَا بَيَانًا وَافِيًّا، وَفَصَّلَهَا تَفْصِيلًا نَافِعًا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ «التَّوْضِيحُ وَالْبَيَانُ لَشَجَرَةِ الْإِيمَانِ».

٢٧- نُقَرِّ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ كُلِّهَا وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا وَنَشْهَدُ

ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ، وَرَكْنًا مِنْ أَرْكَانِهِ؛ أَلَا وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

«نُقَرِّ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ كُلِّهَا» وَهَذِهِ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنْ نُقَرِّ بِأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ كُلِّهَا، أَي: نَوْْمُنُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَحْوَالٍ وَتَفَاصِيلَ، وَأَهْوَالٍ وَأُمُورٍ بَدَأَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، فَعَذَابِهِ وَنَعِيمِهِ، ثُمَّ الْبَعْثُ، وَالنُّشُورُ، وَالْحَشْرُ، وَالْجَزَاءُ، وَالْحِسَابُ، وَالْدَّوَاوِينُ، وَالصَّرَاطُ، وَالْمِيزَانُ، وَالْجَنَّةُ، وَالنَّارُ، وَجَمِيعِ التَّفَاصِيلِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَلِكَ الْيَوْمِ.

«وَمَا اشْتَمَلَتْهُ الدَّارُ حَقًّا» الدَّارُ: أَيِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، نَوْْمُنُ بِكُلِّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَفَاصِيلَ وَرَدَ بَيَانُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ.

(١) «السُّنَّةُ» لِلْخَلَالِ (٤/ ٤٧).

«وَنَشْهَدُ» شهادة إقرار وإيقان، كما قال الله تعالى في وصف أهل الإيمان

﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يَرْجُونَ ۝﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ].

٢٨- تَفَكَّرْ بِآثَارِ الْعَظِيمِ وَمَا حَوَتْ مَمَالِكُهُ الْعُظْمَى لَعَلَّكَ تَرْشُدُ

«تَفَكَّرْ بِآثَارِ الْعَظِيمِ» أي: تأمل في آيات الله العظيمة، ومخلوقاته الباهرة الدالة على كمال خالقها، وعظمة مبدعها - سبحانه وتعالى -، فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - حثَّ عباده على التَّفَكُّر في آياته الْعِظَام، ومخلوقاته الْجِسَام لما في هذا التَّفَكُّر والتَّأَمُّل والتَّدبُّر في هذه المخلوقات من أثر عظيم على العبد، ونفعُ هذا التَّفَكُّر للمؤمن زيادة في الإيمان، ولغير المؤمن بَوَابَةٌ للدُّخُول في هذا الدِّين العظيم، وكم من إنسانٍ كان سبب إيمانه تَفَكُّراً صحيحاً في آية من آيات الله، ومخلوقٍ من مخلوقات الله العظيمة.

«وَمَا حَوَتْ مَمَالِكُهُ الْعُظْمَى» من سماوات وأرض ونحو ذلك من المخلوقات الْعِظَام الكبار، تأمل ما حوته من آيات باهرات، وحجج ساطعات على عظمة مُبدِعِها، وكمال خالقها جلَّ شأنه.

«لَعَلَّكَ تَرْشُدُ» أي: تنال الرَّشَاد، وتكون من الرَّاشِدِينَ بسبب هذا التَّفَكُّر؛ فإنَّ هذا التَّأَمُّل الَّذِي دعا اللهُ - سبحانه وتعالى - عباده إليه في مواضع عديدة من كتابه يرشد العبد إلى أبواب الهداية، وطريق الفلاح، وسبيل السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، قال ابنُ الْقَيِّم في «مفتاح دار السَّعادة»^(١): «وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاسُ التَّفَكُّرُ في آياتِ الله، وعجائب صنعِهِ، والانتقالِ مِنْهَا إلى تَعَلُّقِ الْقَلْبِ والهِمَّةِ بِهِ دُونَ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ».

(١) (١/٢١٤).

٢٩- أَلَمْ تَرَ هَذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا^(١) فَأَغْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ

«أَلَمْ تَرَ» أيها المؤمن «هَذَا اللَّيْلَ إِذْ جَاءَ مُظْلِمًا» يَغْطِي بِظُلْمَتِهِ النَّهَارَ «فَأَغْقَبَهُ جَيْشٌ مِنَ الصُّبْحِ يَطْرُدُ» أي: فتبعه جيشٌ من الصُّبْحِ أي: النَّهَارِ والضُّياءِ والنُّورِ طارِدًا تلكَ الظُّلْمَةَ، وفي هذا آيةٌ من آياتِ الله الباهرة الدَّالَّةُ على عظمةِ الخالقِ وكمالِ المبدعِ - سبحانه وتعالى - الموجبةُ لذكره، وشكره، وحسنِ عبادته.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا

﴿١٢﴾ [سُورَةُ الرُّقْعَانِ]، وقال: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥﴾ [سُورَةُ الرِّيسِ]،

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

الْعَلِيمِ ﴿٦١﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ]، وقال تعالى: ﴿وَعَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ

مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ [سُورَةُ يُونُسَ] .

قال ابنُ سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي هذه الآياتِ تنبيهٌ إلى أَنَّ العبدَ ينبغي له أن يتدبَّرَ نِعَمَ الله عليه، ويستبصر فيها، ويقيسُها بحالِ عَدَمِهَا، فَإِنَّهُ إِذَا وَازَنَ بَيْنَ حَالَةِ وجودِهَا، وبين حَالَةِ عَدَمِهَا، تنبَّهَ عقلُهُ لموضعِ المنَّةِ، بخلافِ مَنْ جَرَى مع العَوَائِدِ، ورأى أَنَّ هذا أَمْرٌ لم يَزَلْ مستمرًّا، ولا يَزَالُ، وعميَ قلبُهُ عن الثَّنَاءِ على الله بنعمِهِ، ورؤيةِ افتقاره إليها في كُلِّ وقتٍ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُجْدِثُ لَهُ فِكْرَةَ شُكْرِ وَلَا ذِكْرٍ»^(٢).

(١) في نسخة (ص): أسدى ظلامه.

(٢) «تفسير السَّعْدِي» (ص ٦٢٣).

٣٠- تَأْمَلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعَهَا كَوَاكِبُهَا وَقَادَةُ تَتَرَدَّدُ

«تَأْمَلْ بِأَرْجَاءِ السَّمَاءِ جَمِيعَهَا» أي: أطرافها وجوانبها وما حوته السماوات من آيات، وهذا تأمل في الآفاق، في هذه السماء ونواحيها التي رفعها الله - سبحانه وتعالى - وجعلها للأرض كالغطاء؛ تغطي الأرض من جميع جهاتها، وتحيط بها من جميع أطرافها.

«كَوَكِبُهَا» أي: النجوم التي جعلها الله - سبحانه وتعالى - زينةً للسماء، وعلاماتٍ يهتدى بها، ورجومًا للشياطين «وَقَادَةُ» أي: مضيئة، وهي آية من آيات الله - سبحانه وتعالى -، فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على كمال بارئها، وعظمة خالقها.

«تَتَرَدَّدُ» والتردد هو التحرك، متحركة بأمر الله - سبحانه وتعالى -، متقلبة من موضع إلى موضع بأمر الله - سبحانه وتعالى - وتسخيره.

٣١- أَلَيْسَ لِهَذَا مُحَدِّثٌ مُتَصَرِّفٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَاحِدٌ مُتَقَرِّدٌ

«أَلَيْسَ لِهَذَا مُحَدِّثٌ» أي: هذا الخلق العجيب، والكون العظيم، والآيات الباهرة؛ أليس له مبدعٌ خالقٌ؟! أيمكن أن يقول عاقل أن هذا الكون وجد هكذا فلتة أو وقع صدفةً بلا خالق ولا موجد؟! «مُتَصَرِّفٌ» أي: مدبر له، لا يتحرك شيء منه إلا بتصرفه وتديره.

«حَكِيمٌ» لم يخلق هذا الخلق بهذا الوصف العظيم، وهذا الجمال البديع، والإحكام المتقن عبثًا، ولم يوجد باطلاً، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ

ظُلُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴿سُورَةُ هَاجِةٍ﴾، وفي هذا أنَّ خلقه السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ عن حكمة، لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدةٍ ولا مصلحةٍ «إذا تأملها صحيحُ التأمل والنَّظر وجدها مؤسَّسةً على غايةِ الحكمةِ مغشاةً بالحكمة، فقرأ سُطورَ الحكمةِ على صفحاتها، وينادي عليها هذا صُنِعَ العليم الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم»^(١).

«عَلِيمٌ» أي: وخلق هذه المخلوقات، وإيجاده لها دليلٌ على علمه بها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿سُورَةُ الْمَلَكِ﴾، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِلْعَالَمِ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿سُورَةُ الطَّلَاقِ﴾].

«وَاحِدٌ مُتَفَرِّدٌ» وأيضاً هذا التأمل في هذه المخلوقات الهادي للإيمان بوجود خالقٍ لها ومبدعٍ داعٍ للإيمان بوحديته وأَنَّهُ - سبحانه وتعالى - واحدٌ مُتَفَرِّدٌ، فكما أَنَّهُ تَفَرَّدَ بخلق هذا الكون وإيجاده لا شريكَ له في شيءٍ من ذلك ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فصل: ٣]، فيجبُ أن يُفَرَّدَ وحده بالطَّاعة، ويُخَصَّ - جلَّ وعلا - وحده بالعبادة، فلا يجعل معه شريكاً.

فهي شواهد «رُقمت سُطورُها على صفحاتِ المخلوقاتِ يقرؤها كلُّ عاقلٍ وغيرِ كاتبٍ؛ نُصبتْ شاهدةٌ لله بالوحدانيةِ والرُّبوبيَّةِ، والعلم والحكمة، واللُّطف والخبرة تأمل سُطور الكائناتِ فإنَّها من الملائِ الأعلَى إليك رسائل وقد خطَّ فيها لو تأملت خطَّها ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل»^(٢)

(١) «الصَّواعقُ المرسلة» (٤ / ١٥٦٧).

(٢) «مفتاح دار السَّعادة» (٢ / ٦٥).

٣٢- بَلَىٰ وَالَّذِي بِالْحَقِّ أَتَقَنَ صُنْعَهَا وَأَوْدَعَهَا الْأَسْرَارَ اللَّهُ تَشْهَدُ^(١)

«بَلَىٰ» جوابٌ، وهو يأتي عقب النَّفي لإثبات المنفي؛ أي: بلى إنَّ لهذا الخلق محدثًا متصِّرًا حكميًا عليًّا واحدًا متفرَّدًا، وأقسمَ على ذلك بالله العظيم «بَلَىٰ وَالَّذِي بِالْحَقِّ أَتَقَنَ صُنْعَهَا»؛ أي: أوجدها بإتقان وإحكام ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَنذِرْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [سُورَةُ الْمَلَكِ]، فهي مخلوقات متقنة ومحكمة تدلُّ على عظمة خالقها وكمال مُبدِعها - سبحانه وتعالى -.

«وَأَوْدَعَهَا الْأَسْرَارَ» أي: أودع هذه المخلوقات أسرارًا تدلُّ على عظمة الخالق وتشهد بذلك، فهي آياتٌ بثَّها الله - عزَّ وجلَّ - ونشرها في هذا الكون تدلُّ عليه.

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله	أم كيفَ يمحِّدُه الجاحِدُ
ولله في كُلِّ تحريكَةٍ وفي	كلِّ تسكينَةٍ أبدًا شاهدُ
وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ	تدلُّ على أَنَّهُ واحدُ

٣٣- وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمَن كَانَ مُوقِنًا وَمَا تَنفَعُ الْآيَاتُ مَن كَانَ يَجْحَدُ

«وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّمَن كَانَ مُوقِنًا» أي: براهين وحجج دالة على وحدانية الله - سبحانه وتعالى -، لكن لا ينتفع بهذه الآيات كلُّ أحد، وإنما ينتفع بها الموقنون كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْكَاسِ]، قال ابنُ كثير في «تفسيره» للآية: «أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، ممَّا قد ذرأ فيها من صُنُوف النَّبات والحيوانات، والمهاد والجبال،

(١) في نسخة (ص): آيات تشهد.

والقفار والأنهار والبحار...»^(١).

لكن الانتفاع بهذه الآيات إنما هو للمؤمنين، أمّا من سواهم فلا ينتفعون ولا يستفيدون؛ ولهذا قال ﷻ: «وَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ مَنْ كَانَ يَجْحَدُ» قال الله - عز وجل -: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١١) [سُورَةُ يُنُسَ] أي: ما تنفع ولا تفيد ولا تجدي، قال ابن كثير: «أي: وأي شيء تجدي الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون»^(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٣) [سُورَةُ يُنُسَ]، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٤) [سُورَةُ يُنُسَ]، فالمعرض الغافل لا ينتفع بالآيات وإن كثرت وتعددت، ومر بها كل وقت وحين.

٣٤- وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ وَفِيهَا عَجَائِبٌ^(٥) بِهَا يُعْرِفُ اللَّهُ الْعَظِيمُ وَيُعْبَدُ

«وَفِي النَّفْسِ آيَاتٌ» أي: والنفس البشرية فيها آيات عظيمة، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٦) [سُورَةُ الذَّارِعَاتِ]، بها أودع الله فيها من أسرار عظمة دالّة على كمال خالقه - جلّ وعلا - .
«وَفِيهَا عَجَائِبٌ» أي: آيات يتعجب من حسنها وجمالها، وكمال إتقانها.
«بها» أي: هذه الآيات «يعرف الله» لكونها تهدي المتأمل، وترشده إلى معرفة

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٩٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٩).

(٣) في نسخة (م): وفي النفس من آيات الحكيم عجائب.

كمال هذا الخالق العظيم.

«وَيُعْبَدُ» أي: وتدُلُّ على وجوب إفراجه بالعبادة، قال قتادة: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ عَلِمَ أَنَّهُ إِنَّمَا لِيُنَّتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ»^(١).

وفي هذا إشارة إلى نوعي التوحيد العلمي والعملي، وكلاهما مقصود الخلق، قال تعالى في بيان أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْرِفُوهُ - سبحانه وتعالى -: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]، وقال تعالى في بيان أَنَّهُ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [سُورَةُ الذَّارِعَاتِ] .

٣٥- لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلَهُ عَظِيمٌ فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ^(٢)

«لَقَدْ قَامَتِ الْآيَاتُ» أي: المتنوعة الكثيرة الباهرة العظيمة «تَشْهَدُ أَنَّهُ إِلَهُ عَظِيمٌ» والإله هو المعبود، فهذه الآيات قامت شاهدة على وجوب إفراجه - تبارك وتعالى - بالعبادة، وإخلاص الدين له.

هذا وَإِنَّ مِنَ السَّفَهَةِ الْعَظِيمِ وَالشُّطْطِ الْبَيِّنِ أَنْ يَتَوَجَّهَ الْإِنْسَانُ فِي عِبَادَتِهِ وَسْؤَالِهِ وَطَلْبِهِ وَرَغْبَتِهِ وَرَهْبَتِهِ إِلَى تَرَابٍ أَوْ قَبَّةٍ مِنَ الْقِبَابِ أَوْ حَفْرَةٍ مِنَ الْحَفْرِ أَوْ شَجَرَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ يَعْزِضُ عَلَيْهَا حَاجَاتِهِ، وَيُنْزِلُ بِهَا طَلِبَاتِهِ، وَلَا يَتَوَجَّهُ فِي سْؤَالِهِ وَطَلْبِهِ إِلَى الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْخَالِقِ الَّذِي قَامَتِ الْآيَاتُ وَالْبَرَاهِينُ وَالشُّوَاهِدُ وَالْحُجُجُ عَلَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْعَظِيمُ، أي: المعبود بحق ولا معبود بحق سِوَاهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَجِبُ

(١) «العظمة» لأبي الشَّيْخ (١/ ٢٣٣).

(٢) في نسخة (ص): يَعْذُّدُ.

أن يُتوجَّه إليه بالدُّعاء، وبالرَّجاء، وبالسُّؤال، وبالطَّلَب، وبالرَّغْب والرَّهْب، ويمرُّ كثيرٌ من النَّاس على هذه الآيات وهم عنها غافلون، ويشاهدونها بأبصارهم ولا ينتفعون؛ ولهذا يتوجَّهون إلى غير الله سؤالًا وطلبًا وذلاً وخضوعًا وانكسارًا، فما انتفعوا بهذه الآيات القائمة شاهدةً على وحدانيَّة الله، ووجوب إفراذه - سبحانه وتعالى - بالعبادة.

«فَضْلُهُ لَيْسَ يَنْفَدُ» أي: مِنْهُ وَجُودُهُ وَعَطَاؤُهُ لَا يَنْفَدُ ﴿مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَاعِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [التَّحْكَة : ٩٦]، خَزَائِنُهُ مَلَأَى - سبحانه وتعالى -، وَالْفَضْلُ كُلُّهُ فَضْلُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [التَّحْكَة : ٥٣]، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [الْإِنْشَاء : ٣٤]، وفي الحديث القدسي يقول - جلَّ وعلا -: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَّسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»^(١).

٣٦- فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ^(٢) وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدٌ
«فَمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْإِلَهِ أَجَابَهُ» وانتفع بهذه الآيات وأقبل على الله مجيبًا
ممثلاً مطيعاً منقاداً لشرع الله - سبحانه وتعالى -.

يشير إلى حديث خَرَّجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهٍ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِي
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ اللَّهُ يُغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ غَرْسًا
يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ»^(٣)، وقوله: «لَا يَزَالُ» يفيد الاستمرار؛ بمعنى أَنَّهُ كَلَّمَا انْتَهَى

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) في نسخة (م): أجابها.

(٣) «سنن ابن ماجه» (٨)، وحسنه الألباني.

غرسٌ بالموتِ أخلفهم - جلَّ وعلا - غرسًا آخر، وهو بمَعْنَى الحديثِ الآخر: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ»^(١)، وقد قال العلامة ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَعَرَسُ اللهُ هُمُ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَلَوْ خَلَّتِ الْأَرْضُ مِنْ عَالَمٍ خَلَّتْ مِنْ غَرَسٍ اللهُ»^(٢)، فلا يزالُ اللهُ - سبحانه وتعالى - يَغْرِسُ عِبَادًا لَهُ أَهْلَ عِلْمٍ وَعَمَلٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ، إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ قَوْمٌ أَخْلَفَهُمْ - تبارك وتعالى - آخَرِينَ، بِهِمْ - سبحانه وتعالى - يُؤَيِّدُ دِينَهُ، وَبِهِمْ يَنْصُرُ شَرْعَهُ؛ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «وَلَكِنَّ اللَّهَ بِرَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَبْعَثُ لَهَا عِنْدَ دُرُوسِ السُّنَّةِ، وَظُهُورِ الْبِدْعَةِ مَنْ يَجِدُّ لَهَا دِينَهَا، وَلَا يَزَالُ يَغْرِسُ فِي دِينِهِ غَرَسًا يَسْتَعْمِلُهُمْ فِيهِ عِلْمًا وَعَمَلًا»^(٣)، جَعَلَهُمْ - سبحانه - أَنْصَارًا لِدِينِهِ، وَهَدَاةً لِعِبَادِهِ بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ - سبحانه وتعالى -.

«وَلَيْسَ لِمَنْ وَلَّى وَأَدْبَرَ مُسْعِدٌ» مَنْ يُولِّي وَيُدْبِرُ أَيُّ: يُعْطِي هَذِهِ الْحُجَجَ وَهَذِهِ الْبَرَاهِينَ دُبْرَهُ مَعْرُضًا فَلَيْسَ لَهُ مُسْعِدٌ، أَيُّ: لَا يَجِدُ أَيْنَمَا ذَهَبَ، وَأَيْنَمَا وَلَّى سَبِيلًا لِلسَّعَادَةِ، وَلَا طَرِيقًا لِلْفَلَاحِ؛ فَإِنَّ سَبِيلَ السَّعَادَةِ، وَطَرِيقَ الْفَلَاحِ إِنَّمَا يَكُونُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعِ هُدَاهُ ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٣٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿شُكْرًا ظَنًّا﴾.

وهذا أيضًا فيه تنبيهٌ من النَّازِمِ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُولُّونَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ مُعْرِضِينَ، وَعَنْ بَرَاهِينِهِ مُدْبِرِينَ، يَبْحَثُونَ وَيَلْهَثُونَ وَرَاءَ سَعَادَةٍ لَمْ يَحْصِلْهَا وَيُظْفَرُ بِهَا مَنْ سَعَى سَعِيهِمْ؛ إِذْ لَا يَظْفَرُ بِالسَّعَادَةِ وَلَا يَفُوزُ بِهَا إِلَّا مَنْ سَلَكَ الْجَادَّةَ،

(١) «صحيح ابن حبان» (٦٦٧٩)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٥٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٤).

(٣) «الصَّوَاغِقُ الْمُرْسَلَةُ» (٢/ ٤٠٠).

ومضى على صراط الله المستقيم، فإنَّ خالقَ هذا الكون ومُوجدَه - سبحانه وتعالى -
قَضَى أن لا يسعدَ في هذه الحياة الدنيا ولا في الدَّار الآخرة إلا مَنْ سلكَ سبيله
المستقيم، وصراطه القويم.

٣٧- عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي فِعْلِ أَمْرِهِ وَتَجْتَنِبُ^(١) الْمَنْهِيَ عَنْهُ وَتُبْعِدُ

«عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ» أي: الزم تقوى الله، وحافظ عليها، وكُن من أهلها «في فِعْلِ
أَمْرِهِ وَتَجْتَنِبُ الْمَنْهِيَ عَنْهُ وَتُبْعِدُ»، وهذه حقيقةُ التَّقْوَى فعلٌ للأوامر واجتنابٌ للنواهي،
كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ لما سُئِلَ عن التَّقْوَى: «تَقْوَى اللَّهِ أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، عَلَى
نُورٍ مِنْ اللَّهِ، رَجَاءَ ثَوَابِ اللَّهِ، وَالتَّقْوَى تَرْكُ مَعَاصِي اللَّهِ، عَلَى نُورٍ مِنْ اللَّهِ، خَوْفَ عِقَابِ
اللَّهِ»^(٢) فجمع رَحِمَهُ اللَّهُ بين الحثِّ على التَّقْوَى والترغيب فيها، وبيان حقيقتها.

٣٨- وَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ^(٣) وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَاءِ وَتَابِعْ رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ

«وَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ» أي: في أعمالك كلها، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾
[البَيِّنَاتُ: ٣]، وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البَيِّنَاتُ: ٥]، والخالصُ:
الصَّافِي النَّقِيُّ الَّذِي لَا شَائِبَةَ بِهِ؛ ومعنى إخلاص الدين لله أي: أن يكون صافيًا نقيًّا لا
يُراد به إلا الله؛ لا يُراد به الدنيا، ولا الرِّياء ولا السُّمعة، ولا غير ذلك من الأغراض.
«وَاحْذَرْ مِنَ الرِّيَاءِ» وهو ضدُّ الإخلاص، أي: كن على حذرٍ شديدٍ من الرِّياء،
والرِّياء هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس، فيحمدوا صاحبها ويمدحوه ويُثَنُّوا

(١) في نسخة (م): وتجنب.

(٢) «الإبانة الكبرى» لابن بطَّة (٢/٥٩٨).

(٣) في نسخة (ص): وأخلص له الأعمال.

عليه، وقد خاف النبي عليه الصلاة والسلام على أمته منه خوفاً شديداً وضرب له مثلاً قال: «يَقُومُ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيَزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»^(١).

«وَتَابِعَ رَسُولُ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ تَعْبُدُ» أي: في أعمالك التَّعَبُّدِيَّة، وما تتقرب به إلى الله - سبحانه وتعالى -، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - إِذَا كَانَتْ عَلَى غَيْرِ هَدْيِهِ، وَعَلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِ، فَإِنَّهَا مُرَدُودَةٌ عَلَى الْمُتَقَرِّبِ لَيْسَتْ مَقْبُولَةً مِنْهُ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢) أي: مردودٌ على صاحبه وغير مقبولٍ منه.

وقد جمع النَّازِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ شَرْطِي قَبُولِ الْعَمَلِ: الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ، وَالْمَتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ، فَالْعَمَلُ لَا يَقْبَلُ إِلَّا إِذَا كَانَ لِلَّهِ خَالِصًا، وَلَهْدِي رَسُولِهِ ﷺ مُوَافِقًا.

قال ابن القيم في «الوابل الصيب»^(٣): «لَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْعَمَلِ، إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي حِفْظِ الْعَمَلِ مِمَّا يُفْسِدُهُ وَيُجْبِطُهُ، فَالرِّيَاءُ - وَإِنْ دَقَّ - مُجْبِطٌ لِلْعَمَلِ، وَهُوَ أَبْوَابُ كَثِيرَةٌ لَا تُخَصَّرُ، وَكَوْنُ الْعَمَلِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ أَيْضًا مُوجِبٌ لِكَوْنِهِ بَاطِلًا».

٣٩- تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ حَقًّا وَثَقِّ بِهِ^(٤) لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا وَتَرْشُدُ

«تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ حَقًّا» وَالتَّوَكَّلُ: عَمَلُ الْقَلْبِ؛ أَي: لِيَكُنِ التَّوَكُّلُ قَائِمًا فِي

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني.

(٢) مسلم (١٧١٨).

(٣) (ص ٢٠).

(٤) في نسخة (ص): وارج ثوابه.

قلبك حقيقةً، وهو: أن يفوض العبد أمره إلى الله، ويسلم نفسه لله، ويلتجئ إلى الله طالباً منه وحده المدد والعون والتوفيق والسداد والحفظ، «وثق به» والثقة توكل، بل هي «خلاصة التوكل ولُبه» كما قال ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه «المدارج»^(١)، فلا تكون إلا بالله لا بالنفس، وفي الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكُنْ لِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةٌ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»^(٢).

«لِيَكْفِيكَ مَا يُغْنِيكَ حَقًّا» ذكر هنا ثمرة التوكل وعاقبته الحميدة، ففي أمر دُنياك يكفيك - سبحانه وتعالى - ما يُغْنِيكَ وَيَسِّرُ لَكَ الرِّزْقَ الْحَلَالَ، والمال الطَّيِّب، وفي أمر دينك يوفِّقك لسلوك سبيل الرِّشَاد، «وَتَرْشُدُ» أي: تنال سبيل الرِّشَاد، وهذا فيه تنبيه من النَّاظِمِ إِلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُصَاحِبًا لِلْعَبْدِ فِي أُمُورِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، فيجب أن تتوكل على الله في أمور دُنياك ليكفيك ما يُغْنِيكَ، ويجب أن تتوكل عليه - سبحانه وتعالى - في أمور دينك لترشد.

٤٠- تَصَبَّرْ عَنِ الْعِصْيَانِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ وَصَابِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ عَلَيْكَ تَسْعُدْ

في هذا حثٌّ على الصَّبْرِ بأنواعه الثلاثة، إذ «الصَّبْرُ باعتبار متعلِّقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطَّاعَاتِ حَتَّى يُوَدِّيَهَا، وصبر عن المناهي والمخالفات حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهَا، وصبر على الأقدار والأقضية حَتَّى لَا يَتَسَخَّطَهَا»^(٣). وأولها - على ترتيب النَّاظِمِ -:

(١) (٢/١٤٣).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٠٩٠)، وحسن إسناده الألباني.

(٣) «عدة الصَّابِرِينَ» لابن القيم (ص: ٢٨).

«تَصَبَّرْ عَنِ الْعِصْيَانِ» بمنع النَّفْسِ عن فعل الذُّنُوبِ وحسبِها عن الوقوع في محارم الله ومقارفتها؛ فَإِنَّهَا تحتاج إلى صبر لتمتنع عن المعاصي، وَمَنْ لا صبر عنده تفلَّتت نفسه عند أدنى شهوة، فما أن يدعو الدَّاعي وتناديه الشَّهوة - وما أكثرها في زماننا هذا - اندفع وراءها وانساق؛ وهذا لا يوفِّق، بينما إذا كان متحلِّياً بالصَّبر وُفِّقَ للامتناع عن المعاصي والانكفاف عن فعلها، وفي الحديث: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»^(١) أي: مَنْ تصبَّرَ مرَّةً بعد مرَّةٍ فاز بالعاقبة الحميدة.

وثانيها: «وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ» أي: اصبر على ما يقدره الله عليك، ويقضيه من أقضية من مُصابٍ أو ابتلاءٍ أو نحو ذلك ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ].

فالمراد بالحكم هنا أي: الحكم الكونيُّ القدريُّ؛ لأنَّ الحكم تارة يُراد به الحكم الكونيُّ القدريُّ، وتارة يُراد به الحكم الشرعيُّ الدينيُّ، وقد بيَّن رَحِمَهُ اللهُ الْحَكَمَ الشرعيَّ الدينيَّ وهو ترك المعاصي وفعل الطَّاعات، فيكون مراده بقوله «وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ» أي: حكمه الكونيُّ القدريُّ.

وثالثها: «وَاصْبِرْ عَلَى الطَّاعَاتِ» صابر نفسك على طاعاتِ الله، فالطَّاعةُ تحتاج من العبد إلى صبر ليفعلها وليواظب على أدائها ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مَرْيَمَةُ: ٦٥]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٥٦) [سُورَةُ الْبَقَرَةِ].

«عَلَّكَ تَسْعُدُ» أي: إذا أكرمك الله - سبحانه وتعالى - واجتمعت لك هذه

(١) البخاري (١٤٦٩).

الأنواع الثلاثة من الصَّبر: الصَّبر عن المعاصي، والصَّبر على أقدار الله المؤلمة، والصَّبر على الطَّاعات فُزَتْ بسعادة الدَّارين الدُّنيا والآخرة؛ فهذا هو سَبِيل السَّعادة وطريقُها.

٤١- وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا هُمَا كَجَنَاحَيْ طَائِرٍ حِينَ تَقْصِدُ

«وَكُنْ سَائِرًا بَيْنَ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَا» حين تقصد في سيرك الله - عزَّ وجلَّ - حبًّا له وطلبًا لرضاه كن في هذا السَّير إليه - تبارك وتعالى - بين المخافة والرَّجاء، وهذه الثلاث: المحبة والرَّجاء والخوف محرَّكات للقلوب يحتاج القلب إليها دومًا وأبدًا، ويجب أن تكون مع العبد باستمرار، فالله - عزَّ وجلَّ - يُعبد بالحبِّ والرَّجاء والخوف، وحبُّ الله - سبحانه وتعالى - هو الَّذي يجعل العبدَ يسير في هذا الطَّرِيق، والخوف والرَّجاء كما وصفهما النَّازِمُ وأهل العلم قبله كجناحي الطَّائر في هذا المسير.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ولابدَّ من التَّنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله - عزَّ وجلَّ -، فتعتصم به فتقلُّ آفاتُها أو تذهبُ عنها بالكلِّية بحولِ الله وقوَّته؛ فنقول:

اعلم أنَّ محرَّكات القلوب إلى الله - عزَّ وجلَّ - ثلاثة: المحبة والخوف والرَّجاء، وأقواها المحبة وهي مقصودة تُراد لذاتها؛ لأنَّها تُراد في الدُّنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنَّه يزولُ في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ]، والخوف المقصودُ منه الزَّجر والمنع من الخروج عن الطَّرِيق، فالمحبة تلقي العبد في السَّير إلى محبوبه وعلى قدر ضعفها وقوَّتها يكونُ سيره إليه، والخوف يمنعُه أن يخرجَ عن طريق المحبوب، والرَّجاء يقوده؛ فهذا أصلٌ عظيمٌ يجب على كلِّ عبدٍ أن يتنبَّه له؛ فإنَّه لا تحصل له

العبودية بدونه، وكلُّ أحدٍ يجبُ أن يكونَ عبدًا لله لا لغيره»^(١).

«حينَ تَقْصِدُ» أي: حينَ تقصدُ اللهَ - جَلَّ وعلا - محبًّا له، طالبًا لرضاه، قال

الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الأنزلة: ٥٧]، قال شيخ الإسلام في «مجموع فتاويه»^(٢): «فما

حَفِظْتَ حدودَ الله ومحارمَهُ، ووَصَلَ الواصلونَ إليه بمِثْلِ خوفِهِ ورجائِهِ ومحَبَّتِهِ؛

فمَتَى خلا القلبُ مِن هذه الثلاثِ فسدَ فسادًا لا يُرجى صلاحُهُ أبدًا؛ ومتى

ضَعُفَ فيه شيءٌ من هذه ضَعُفَ إيمَانُهُ بحسبه».

٤٢- وَقَلْبَكَ طَهَّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ^(٣) وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ^(٤)

«وَقَلْبَكَ طَهَّرْهُ وَمِنْ كُلِّ آفَةٍ» أي: اجتهد في تطهير قلبك، وتنقيته من كلِّ

الآفات كاجتهادك في تطهير ملابسك، وتنظيف بدنك من الأوساخ، والقلبُ أولى

بالتَّطهير، وهو يُبتلى بآفاتٍ كثيرة، ويُصَابُ بأسقامٍ عديدة؛ قال شيخ الإسلام في

كتابه «أمراض القلوب وشفائها»^(٥): «مرضُ القلب هو نوعُ فسادٍ يحصل له، يفسدُ

به تصوُّره وإرادته: فتصوُّره بالشُّبهات التي تعرض له حتَّى لا يرى الحقَّ أو يراه

على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغي الحقَّ النَّافع، ويحبُّ الباطل الضَّارَّ،

وتطهير القلب يكونُ بالتَّوحيد والإخلاص والصَّدق، وعمارته بالأعمال القلبيةَّة

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

(٢) (١٥/ ٢١).

(٣) في نسخة (ص): من كلِّ آفة.

(٤) في نسخة (ص): وكفَّ الأذى عن غيرك تسعد.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٩٣).

الصَّالِحَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا طَهَارَةُ الْقَلْبِ وَنَقَاؤُهُ وَسَلَامَتُهُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «الْفَوَائِدِ»^(١): «الْقَلْبُ يَمْرُضُ كَمَا يَمْرُضُ الْبَدَنُ، وَشِفَاؤُهُ فِي التَّوْبَةِ وَالْحِمَى، وَيَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ الْمَرَأَةُ، وَجَلَاؤُهُ بِالذِّكْرِ، وَيَعْرِى كَمَا يَعْرِى الْجَسْمُ، وَزَيْتُهُ التَّقْوَى، وَيَجُوعُ وَيَظْمَأُ كَمَا يَجُوعُ الْبَدَنُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ الْمَعْرِفَةُ وَالْمَحَبَّةُ وَالتَّوَكُّلُ، وَالْإِنَابَةُ...».

«وَكُنْ أَبَدًا عَنْ عَيْبِهِ تَتَفَقَّدُ» أَي: دَائِمًا فَتَشْ عَنْ عِيُوبِ نَفْسِكَ، وَعَنْ أَمْرَاضِ قَلْبِكَ، وَمَاذَا فِيكَ مِنَ الْآفَاتِ، لِتَعْمَلَ عَلَى تَنْقِيَتِهِ وَتَطْهِيرِهِ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ^(٢): «مَنْ لَمْ يَطْهَرْ اللَّهُ قَلْبَهُ فَلَا بَدَّ أَنْ يَنَالَهُ الْخِزْيُ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ بِحَسَبِ نَجَاسَةِ قَلْبِهِ وَخَبِيثِهِ».

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٣- وَجَمَّلَ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ إِنَّهُ لَا أَعْلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ

«وَجَمَّلَ بِنُصْحِ الْخَلْقِ قَلْبَكَ» أَي: حَلَّه وَزَيَّنَهُ دَائِمًا وَأَبَدًا بِالنُّصْحِ لِلْخَلْقِ، وَالْمُسْلِمِ مَطْلُوبٌ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا نَاصِحًا لِلْمُسْلِمِينَ غَيْرَ غَاشٍّ لَهُمْ، وَالنَّصِيحَةُ ضِدُّهَا الْغَشُّ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قُلْنَا لِمَنْ؟ قَالَ: «لِللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(٣)، وَتَكُونُ النَّصِيحَةُ لَهُمْ بِأَنْ يَحِبَّ لَهُمْ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَشْفُقُ عَلَيْهِمْ، وَيَرْحَمُ صَغِيرَهُمْ، وَيَوْقُرُ كَبِيرَهُمْ، وَيَحْزَنُ لِحَزَنِهِمْ، وَيَفْرَحُ لِفَرَحِهِمْ، وَيَحِبُّ صِلَاهُمْ وَأُفَّتَهُمْ وَدَوَامَ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ، وَنَصْرَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَدَفَعَ كُلَّ أَذَى وَمَكْرُوهِ عَنْهُمْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي.

(١) (١٨٣).

(٢) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ٧٠).

(٣) مُسْلِمٌ (٥٥).

«إِنَّهُ لَا عَلَى جَمَالٍ لِلْقُلُوبِ وَأَجْوَدُ» أي: أَنَّ النَّصِيحَةَ لِلخَلْقِ وَالسَّلَامَةَ مِنْ غَشِّهِمْ تَعَدُّ جَمَالًا لِلْقُلُوبِ وَزِينَةً لَهَا، بَلْ هِيَ أَجْمَلُ وَأَجْوَدُ مَا تَتَجَمَّلُ بِهِ الْقُلُوبُ وَتَتَحَلَّى، وَنَقِيضُ ذَلِكَ الْغَشُّ، فَإِنَّهُ مِنْ أَسْوَأِ مَا تَتَصَفُّ بِهِ الْقُلُوبُ، بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ ظُلْمَتِهَا وَتَلَفِهَا.

٤٤- وَصَاحِبٌ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ

«وَصَاحِبٌ إِذَا صَاحَبْتَ كُلَّ مُوَفَّقٍ» أي: احْرِصْ عَلَى انْتِقَاءِ الْأَصْحَابِ وَتَخَيَّرِ الْإِخْوَانَ، فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١)، فَلَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ مَنْ شَاءَ، بَلْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَخَيَّرَ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْإِخْوَانِ وَالرُّفَقَاءِ كُلِّ مُوَفَّقٍ، وَالتَّوْفِيقُ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، لَكِنْ لَنَا الظَّاهِرُ وَاللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ، فَإِذَا رَأَيْنَا أَمَارَاتِ التَّوْفِيقِ عَلَى الشَّخْصِ بِالمَحَافِظَةِ مِثْلًا عَلَى الصَّلَاةِ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِيزَانٍ بَلْ هِيَ مِيزَانُ يَوْمِيٍّ؛ تَكْتَشِفُ بِهَا حَالُ صَاحِبِكَ خِلَالِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، هَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ أَوْ مِنَ الْمَضِيِّعِينَ لَهَا، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِهَا فَهَذَا مِنْ أَمَارَاتِ التَّوْفِيقِ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَضِيِّعِينَ لَهَا فَلَا خَيْرَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَرِيدُ مَعَالِجَتَهُ وَإِصْلَاحَهُ، لَا أَنْ يُتَّخَذَ خَلِيلًا وَصَاحِبًا.

«يَقُودُكَ لِلْخَيْرَاتِ نُصْحًا وَيُرْشِدُ» وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَمَارَاتِ الْمُوَفَّقِينَ الَّذِينَ لَا يُفَرِّطُ فِي صَحْبَتِهِمْ: النَّصْحُ وَالْإِرْشَادُ لِمَنْ يَصَاحِبُهُمْ، وَكَوْنُهُمْ يَقُودُونَهُ لِلْخَيْرَاتِ، بِخِلَافِ خُلُطَاءِ الْفَسَادِ، وَلِهَذَا ضَرَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِثْلًا يُوَضِّحُ مِنْ خِلَالِهِ تَأْثِيرَ الصَّاحِبِ عَلَى صَاحِبِهِ سِوَاءٍ فِي بَابِ الْخَيْرِ أَوْ فِي بَابِ الشَّرِّ فَقَالَ: «مَثَلُ

(١) «مسند الإمام أحمد» (٨٤١٧)، و«سنن أبي داود» (٤٨٣٣)، و«جامع الترمذي» (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

الجلس الصالح والجلس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير؛ فحامل المسك: إمّا أن يُخديك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة؛ ونافخ الكير: إمّا أن يُحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحاً خبيثة»^(١)، فالصاحب لابد أن يكون له أثرٌ على صاحبه وتأثيرٌ على جلسه، فمن صحب طلاب العلم وجد في نفسه رغبة عظيمة في طلب العلم، ومن صحب عبداً وجد في نفسه نشاطاً للعبادة، وكذلك من صحب صاحب صنعة ما وجد نفسه مالت إلى صنعته، وهكذا صحبة الفساق لها أثرها الخطير، وضررها المستطير، فالصاحب يؤثر في صاحبه ولا بد.

وإذ كان الأمر كذلك؛ فإنّ الذي ينبغي على المسلم الناصح لنفسه أن يصاحب كلّ موفق، ليسلم وليفوز بخير مغنم.

٤٥- وَإِيَّاكَ وَالْمَرْءَ الَّذِي إِنْ صَحِبْتَهُ^(٢) خَسِرْتَ خَسَارًا^(٣) لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدٌ

يحدّر من قرين السوء وخليط الفساد، ومن صحبته شرٌّ على الإنسان؛ سواءً من أرباب البدع والمقالات الباطلة، أو من أصحاب الفسوق والمعاصي والآثام؛ لأنّ مصاحبة مثل هؤلاء ومُباستطهم تؤدي إلى التأثير بهم، إلّا إذا جلس مؤثراً بما آتاه الله من العلم والنصيحة والبيان، أمّا إن جلس معهم مجالس مؤانسة ومباستطة فقد يأتي عليه يومٌ يكون فيه مثلهم متأثراً بهم.

وفي زماننا هذا استجدّ نوعٌ من الأصحاب والخلطاء لم يكن لهم وجودٌ في الزمن السابق، وأثر على جلسه تأثيراً خطيراً للغاية، وجنى على كثير من الناس

(١) البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

(٢) في نسخة (ص): الذي ساء فعله.

(٣) في نسخة (ص): فتخسر خسراً.

جنايةً بالغةً، ألا وهو مجالسة القنوات الفضائية ومواقع الشبكة العنكبوتية، فكثيرٌ من النَّاس أصبح له مع المواقع والقنوات صحبةٌ يجالسها جلساتٍ طويلةٍ جدًا، ويرى الأشخاص الذين يصاحبهم في تلك القنوات أو المواقع، ويسمع أحاديثهم، ويشاهد أفعالهم، ثمَّ مع مرِّ الأيام يتأثر بتلك الأخلاقيات؛ بل بذلك السُّفول والانحطاط والتردي والأعمال المشينة القبيحة، وكَم من أناس جنت تلك المشاهدات عليهم جنايةً عظيمةً في أديانهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، وعقولهم، وأحدثت فيهم تحوُّلاً خطيراً.

فوجبَ أخذُ الحيطة والحذر حتَّى يسلم للمرء دينه، أمَّا أن يكون مخاطراً بدينه بهذه الطريقة المزرية - والعياذ بالله -؛ فهذا من أعظم الجنايات، وأعظم أسباب الخسران، كما قال النَّاظم: «خَسِرْتَ خَسَارًا لَيْسَ فِيهِ تَرَدُّدٌ» أي: بيِّنًا واضحًا لا شكَّ في وضوح خطوريته ولا ريب.

٤٦- خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ

يشير هذا البيت إلى قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ]، وهذه الآية - كما قال غير واحدٍ من أهل العلم -: هي أجمعُ آيةٍ في باب الآداب والأخلاق، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الآية فيها جماعُ الأخلاق الكريمة؛ فإنَّ الإنسانَ مع النَّاسِ إمَّا أن يفعلوا معه ما يحبُّ^(١) أو ما يكره، فأمر أن يأخذَ منهم ما يحبُّ ما سمحُوا به، ولا يُطالبُهم بزيادة، وإذا فعلوا معه ما يكره أعرَضَ عنهم»^(٢).

(١) في الأصل: غير ما يحب، ولعل لفظة (غير) زائدة.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٧٠ / ٣٠).

وللناظم رَحْمَةُ اللهِ كَلامٌ عَظِيمٌ في بيان مدلول هذه الآية الكريمة في كتابه «التفسير»، أشاد به تلميذه الشيخ محمد بن صالح العثيمين في مقدمته لتفسير الشيخ رَحْمَةُ اللهِ، وعده ميزة من ميزات هذا التفسير، وأنَّ الشيخ رَحْمَةُ اللهِ اعتنى فيه بالجانب التربوي وتهذيب الأخلاق، قال ابنُ سعدي: «هذه الآية جامعةٌ لحُسن الخُلُق مع النَّاس، وما ينبغي في معاملتهم، فالَّذي ينبغي أن يُعامل به النَّاس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كلِّ أحدٍ ما قابله به، من قولٍ وفعلٍ جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغضُّ طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصَّغير لصِغره، ولا ناقصَ العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكلِّ قولٍ حسن، وفعلٍ جميل، وخلقٍ كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى النَّاس منك: إمَّا تعليمٌ علم، أو حثٌّ على خير، من صلةٍ رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاحٍ بين النَّاس، أو نصيحةٍ نافعة، أو رأيٍ مصيب، أو معاونةٍ على برٍّ وتقوى، أو زجرٍ عن قبيح، أو إرشادٍ إلى تحصيل مصلحة دينيةٍ أو دنيويةٍ، ولَمَّا كان لا بدَّ من أذية الجاهل، أمرَ الله تعالى أن يُقابَلَ الجاهلُ بالإعراض عنه، وعدم مقابَلته بجهله، فَمَن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومَن حرَمَكَ لا تحرمه، ومَن قطعَكَ فَصله، ومَن ظلمَكَ فاعدل فيه»^(١)، وله كلامٌ أوسعُ من هذا وأوفى في كتابه «الرياض النَّاضرة»^(٢) في بيان دلائل هذه الآية

(١) «تيسير الكريم الرَّحمن» عند الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٢) انظر كلامه في «الرياض النَّاضرة» ص (٨٦).

وفوائدها الجليلة.

«خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ قَدْ صَحِبْتَهُ» فيه تنبيهٌ إلى أنَّ مَنْ تصاحب من النَّاسِ ليسوا على معدنٍ واحدٍ ولا على مستوى واحدٍ في الأخلاق بل متفاوتون ، فخذ العفو وهو ما سمحت به أخلاقُ النَّاسِ حسبَ طبائعهم ومعادنهم، ولا تنتظر الكمال من الجميع؛ فمن النَّاسِ مَنْ يلقاك بأخلاق كريمة عالية، ومنهم مَنْ يلقاك بأخلاق سيئة ومعاملات غليظة، فخذ هذا وذاك؛ هذا تأخذه بالتقدير والاحترام، وذاك تأخذه بالعفو والصَّفح، وليس من الضروريَّ أنَّ مَنْ يسيءُ إليك هذه المرة أن يستمرَّ مُسيئًا، بل إذا أخذته بالعفو وعاملته باللُّطف، ودفعته بالتّي هي أحسن تحسنت أخلاقه، واستفاد منك خلقًا كريمًا.

والواقع الذي ينبغي أن يكون في مثل هذا المقام أن يستفيد صاحبُ الخلق السيِّء من صاحب الخلق الجميل، لا أن تنعكس القضية بأن يكون صاحبُ الخلق الجميل هو المتأثر بصاحب الخلق السيِّء، بل الحقُّ أن يبقى على مستواه في الخلق العالي والدفع بالتّي هي أحسن، وكظم الغيظ، والعفو عن النَّاسِ، حتّى يستفيدوا من أخلاقه الجميلة، وأدبه الكريم.

«كَمَا يَأْمُرُ الرَّحْمَنُ فِيهِ وَيُرْشِدُ»؛ كما يأمرُك بذلك الله - سبحانه وتعالى - في

قوله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ].

٤٧- تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِمَنْ يَتَزَوَّدُ

«تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا فَلَيْسَتْ إِقَامَةً» أي: لا تعتبر هذه الحياة الدنيا موطنًا لك ومستقرًّا، فهي ليست دارَ إقامة؛ بل هي دار ظعن وانتقال وارتحال، فالدُّنيا مرتحلة، وأهلها مرتحلون كما جاء في الأثر عن عليٍّ عليه السلام قال: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا

مُدْبِرَةٌ، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»^(١)، وقال بعضُ الحكماء: «عَجِبْتُ مِمَّنِ الدُّنْيَا مَوْلِيَةٌ عَنْهُ، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ إِلَيْهِ يَشْتَغِلُ بِالْمُدْبِرَةِ وَيُعْرِضُ عَنِ الْمُقْبِلَةِ»^(٢)، بل حَالُ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَحَالِ الْمَسَافِرِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الصُّبْحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظَّرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(٣)؛ بَأَن يَكُونَ مُسْتَعِدًّا مَتَّهِيًا مُحَافِظًا عَلَى فَرَائِضِ الْإِسْلَامِ وَوَاجِبَاتِ الدِّينِ مُبْتَعِدًّا عَنِ الْحَرَامِ؛ لِأَنَّهُ سَيَنْتَقِلُ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ ثُمَّ يُجْزَى عَلَى كُلِّ أَعْمَالِهِ، قَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ»^(٤): «وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي قِصْرِ الْأَمَلِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ الدُّنْيَا وَطَنًا وَمَسْكَنًا، فَيَطْمَئِنُّ فِيهَا، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهَا كَأَنَّهُ عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ: يَهَيِّئُ جِهَازَهُ لِلرَّحِيلِ، وَقَدْ اتَّفَقَتْ عَلَى ذَلِكَ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَاعِهِمْ، قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ﴿٢٦﴾ [سُورَةُ غَاثِرَةُ: ٢٦]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا؛ إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا، كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

(١) رواه البخاري في كتاب الرِّقَاق، باب في الأمل وطوله، تعليقًا.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٣٧٨/٢).

(٣) رواه البخاري (٦٤١٦).

(٤) (٣٧٧/٢).

«وَلَكِنَّهَا زَادٌ لِّمَنْ يَتَزَوَّدُ» أي: الدنيا زادٌ للآخرة، وبحسب نوع الزاد يكون الحصاد والثمار يوم القيامة، فمن زرع خيراً وجد ثوابه وأجره، ومن زرع شراً وجد عقوبته ووزره، وقد قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧]، قال عمر بن عبد العزيز في خطبته: «إنَّ الدنيا ليست بدارٍ قرارٍ لكم، كتبَ اللهُ عليها الفناء، وكتبَ على أهلها منها الظَّعن، فكم من عامرٍ موثقٍ عمّا قليلٍ يَحْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُّغْتَبِطٍ عمّا قليلٍ يَظْعَنُ، فأحسنوا - رحمكم الله - منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النُّقْلة، وتزودوا فإنَّ خيرَ الزادِ التَّقوى»^(١).

قال ابن رجب: «وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، ولا وطنًا، فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إمّا أن يكون كأنه غريب مقيمٌ في بلد غُربة، همُّه التزوّد للرُّجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافرٌ غير مقيم البتّة، بل هو ليله ونهاره، يسيرُ إلى بلد الإقامة، فلهذا وصّى النبي ﷺ ابنَ عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين»^(٢)، والموفق من عبادِ الله من يُحسِنُ الزاد ليوم المعاد.

٤٨- وَكُنْ سَالِكًا طُرُقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا إِلَى الْمَنْزِلِ الْبَاقِي الَّذِي لَيْسَ يَنْفَدُ

«وَكُنْ سَالِكًا طُرُقَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا» أي: السلف الصالح ولا سيّما الصّحب الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّقُوتَ الْأُولَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٠٠]، فكن سالكًا طريق هؤلاء الأخيار

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٩٢)، و«الزُّهد» لابن أبي الدنيا (٣٧٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٧٨).

سائرًا على نهجهم مقتفياً أثرهم كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مُسْتَنَّاً فَلَيْسَتْ بِيَمَنٍ قَدْ مَاتَ؛ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

«إِلَى الْمَنْزِلِ الْبَاقِي» أي: الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَمَضَتْ حَيَاتُهُمْ عَلَى الْإِسْقَامَةِ وَالسَّادَاتِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقُدُوةُ، وَهُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى مَنْ يَقْتَدِي بِهِمْ، وَيَسِيرُ عَلَى مَنَاجِهِمْ.

٤٩- وَكُنْ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَقْتُ مُقَيَّدٍ^(٢)

«وَكُنْ ذَاكِرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ» أي: اعْتَنِ بِذِكْرِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كُلِّ أَحْوَالِكَ، وَجَمِيعِ شُؤُونِكَ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَقَدْ جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٣) عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»، أَي: فِي حَالِ الْقِيَامِ، وَفِي حَالِ الْقُعُودِ، وَفِي حَالِ الْإِضْطِجَاعِ، وَفِي حَالِ الذَّهَابِ، وَفِي حَالِ الرَّوَّاحِ، فِي كُلِّ ذَلِكَ يَذْكُرُ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا -، وَكَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ عِبَادِ اللَّهِ ذِكْرًا لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -.

«فَلَيْسَ لِذِكْرِ اللَّهِ وَقْتُ مُقَيَّدٍ» أي: لَيْسَ هُنَاكَ وَقْتُ مُقَيَّدٍ بِحَيْثُ يُقَالُ لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - إِلَّا فِي هَذَا الْوَقْتِ؛ بَلِ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - يُذَكِّرُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ، وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، لَكِنْ هُنَاكَ أَوْقَاتٌ مُقَيَّدَةٌ لِأَذْكَارِ مَعَيَّنَةٍ مِثْلَ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ، وَأَذْكَارِ الْمَسَاءِ، وَأَذْكَارِ أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ أَوْ حَالٍ مُعَيَّنٍ أَوْ سَبَبٍ مُعَيَّنٍ؛ فَهَذَا لَيْسَ تَقْيِيدًا لِلذِّكْرِ

(١) «حَلِيَّةُ الْأَوْلِيَاءِ» (١/ ٣٠٥)، و«شَرْحُ السُّنَّةِ» لِلْبَغَوِيِّ (١/ ٢١٤).

(٢) فِي نَسْخَةِ (ص): يَقِيدُ.

(٣) بِرَقْمِ (٣٧٣).

مطلقاً وإنّما هو تقييدٌ لنوع من الأذكار بأوقاتٍ معيّنة، أمّا ذكرُ الله - عزَّ وجلَّ - مطلقاً فهو مشروعٌ في كلّ وقتٍ وحين.

ثمَّ شرعَ رَحِمَهُ اللهُ في عدِّ فضائلِ الذكر، قال:

٥٠- فَذِكْرُ إِيَّاهِ الْعَرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًا يُزِيلُ الشَّقَا وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ

«فَذِكْرُ إِيَّاهِ الْعَرْشِ سِرًّا» أي: في نفسك، «وَمُعْلَنًا» أي: بلسانك، «يُزِيلُ الشَّقَا» هذه الفائدة الأولى من فوائد ذكر الله - جلَّ وعلا - أنّه يزِيلُ الشَّقَا، وزوال الشَّقَا يدلُّ على تحقُّق السَّعادة؛ لأنَّ الشَّقَا ضِدُّ السَّعادة؛ فإذا زال الشَّقَا حَلَّتْ السَّعادة وتحقَّقت للعبد الهناءة في عيشه، وقُرَّة العين، وبهجة النفس، وسُرور القلب، «وَالْهَمَّ عَنْكَ وَيَطْرُدُ» ويزِيلُ الهَمَّ ويطرده عن العبد، فذكرُ الله - عزَّ وجلَّ - شفاءُ الصُّدُور، وجلاءُ الأحزان، وطبُّ القلوب، وزوالُ المكدرات والكربات، وهو أعظم طارِدٍ للغُوم، بل إنّ الغُومَ والهمومَ لا تنطردُ إلّا بالذكر، والقلوب لا تطمئنُّ إلّا به كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَةِ].

٥١- وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَاً وَآجِلًا وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشَرِّدُ

ذكر في هذا البيت فائدتين من فوائد الذكر:

الأولى في قوله: «وَيَجْلِبُ لِلْخَيْرَاتِ دُنْيَاً وَآجِلًا» أي: أنّه جَلَّابٌ للخيرَات والبركات في حياة الدَّاكر: صحَّة في بدنه، وقوَّة في جسمه، وصفاء في عقله، وطيباً في معيشته، إلى غير ذلك من الخيرات؛ «وَأَجِلًا» أي: في الدَّار الآخرة، وثواب الآخرة أعظم، وعموماً ما استُجلبَت النُّعم واستُدْفعت النُّقم في الدَّارين بمثل ذكرِ الله - جلَّ وعلا -.

والثانية في قوله: «وَإِنْ يَأْتِكَ الْوَسْوَاسُ يَوْمًا يُشْرِدُ» أي: أنه يطرد الوسواس الذي هو الشيطان، فذكر الله - عز وجل - طارداً للشيطان عن العبد، والغفلة عن ذكر الله - عز وجل - جالبةً للشيطان.

قال ابن القيم رحمه الله: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقةً بالعبد أن لا يفتّر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرضده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع وكالدباب، ولهذا سمي «الوسواس الخناس»، أي: يوسوس في الصدور؛ فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشيطان جائئ على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس»^(١).

والغفلة عن ذكره جالبة له ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [شُورَةُ الزُّنُوفِ]، ولهذا فإن الذكر حصن حصين، وحرز مكين يحمي العبد ويقيه - بإذن الله تبارك وتعالى - من الشيطان الرجيم، وقد جاء في حديث عن نبينا - عليه الصلاة والسلام -: أن زكريّا - عليه السلام - قال لقومه: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ - وذكر منها -: وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ»^(٢).

(١) «الوابل الصيب» (ص: ٧٢).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٨٦٣).

٥٢- فَقَدْ أَخْبَرَ الْمُخْتَارُ يَوْمًا لِصَحْبِهِ بِأَنَّ كَثِيرَ الذُّكْرِ فِي السَّبْقِ مُفْرَدٌ

وهذه أيضًا فائدة عظيمة من فوائد الذكر؛ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -
عَدَّ الذَّاكِرِينَ بِأَتَمِّ السَّابِقُونَ فِي مَضْمَارِ التَّنَافُسِ فِي نَيْلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا -
وِثْوَابِهِ ، فَإِنَّ الْعَامِلِينَ لِنَيْلِ ثَوَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَأَجْرِهِ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ،
مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ أَنَاسٍ فِي مَضْمَارٍ ، وَفِي سَبَاقٍ فِي ذَلِكَ الْمَضْمَارِ ، وَمِثْلُ الذَّاكِرِينَ فِي هَذَا
كَالسَّابِقِ فِي مَضْمَارِ السَّبَاقِ وَالْمُتَقَدِّمِ عَلَى الْأَصْحَابِ وَالرِّفَاقِ ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ :
«عَمَّا لَ الْآخِرَةِ كُلُّهُمْ فِي مَضْمَارِ سَبَاقٍ ، وَالذَّاكِرُونَ هُمْ أَسْبَقُهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَضْمَارِ» ^(١) ،
يَدُلُّ لِهَذَا مَا جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ - قَالَ : «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قَالُوا : وَمَا الْمُفْرَدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :
«الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا ، وَالذَّاكِرَاتُ» ^(٢) .

٥٣- وَوَصَّى مُعَاذًا يَسْتَعِينُ إِلَهَهُ عَلَى ذِكْرِهِ وَالشُّكْرِ بِالْحُسْنِ يَعْبُدُ

وَمِنْ فَوَائِدِ الذُّكْرِ أَنَّ النَّبِيَّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَصَّى حَبَّةَ مُعَاذِ بْنِ
جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَسْأَلَ إِلَهَهُ ، وَأَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الْعَوْنَ عَلَى الذُّكْرِ
وَالشُّكْرِ ، وَحُسْنَ الْعِبَادَةِ ؛ وَهَذَا أَعْظَمُ الْمَطَالِبِ وَأَجْلُّهَا أَنْ يَنَالَ الْعَبْدُ الْعَوْنَ عَلَى
الذُّكْرِ وَالشُّكْرِ ، وَحُسْنَ الْعِبَادَةِ ، ثَبَتَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ» ، وَ«مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : «يَا مُعَاذُ ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ؛ فَقَالَ : أَوْصِيكَ يَا
مُعَاذُ ؛ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ ، وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ

(١) «الوَابِلُ الصَّيِّبُ» (ص : ١٥٨) .

(٢) مُسْلِم (٢٦٧٦) .

عِبَادَتِكَ»^(١)؛ وتخصيص هذه الثلاث بالذكر دليل على أنَّها أفضل ما يطلب العبد من الله العون عليه.

٥٤- وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ وَقَدْ كَانَ فِي حِمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ

٥٥- بِأَنْ لَا يَزَلْ رَطْبًا لِسَانِكَ هَذِهِ تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ وَتُسَعِدُ

هذه فائدة عظيمة من فوائد الذكر ألا وهي: أن الذكر يسهل على العبد ويُيسر له فعل الأوامر وترك النواهي؛ وإذا كثرت على العبد، وثقلت عليه، فليس هناك ما يسهلها ويلينها ويُيسرها مثل ذكر الله - سبحانه وتعالى -، والناظم رحمته يشير في هذين البيتين لما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ؛ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبُّتُ بِهِ؟ - أي أتمسك به -؛ قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(٢)؛ ولكي نفهم هذا الحديث على بابه دون خطأ يجب أن نعرف المطلوب السائل عندما قال للنبي ﷺ: «إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ» هل يريد من النبي ﷺ أن يعفيه من هذه الشرائع؟ أو يريد أن يذكر له النبي ﷺ أمرًا يجعل هذه الشرائع خفيفة عليه، سهلة يسيرة ليست ثقيلة على نفسه ولا صعبة، ولا ريب أن مراده الثاني، وقد أرشده النبي - عليه الصلاة والسلام - إلى العناية بالذكر؛ لكونه يذلّل وَيُيسِّر للعبد الشرائع، ويُعينه على فعلها، بينما الغافل عن ذكر الله اللاهي الساهي إذا نُودي للصلاة

(١) «سنن أبي داود» (١٥٢٢)، و«مسند الإمام أحمد» (٢٢١٢٦)، وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) واللفظ للترمذي، وصححه الألباني.

ثقلت عليه، وإذا نُوديَ لغيرها من الطاعات الأخرى ثقلت عليه، ولهذا قال: «وَأَوْصَى لِشَخْصٍ» أي النبي ﷺ، «قَدْ أَتَى لِنَصِيحَةٍ» طالبا النصيحة فيما يلين له الطاعة ويسر له القيام بها «وَقَدْ كَانَ فِي حِمْلِ الشَّرَائِعِ يَجْهَدُ» أي: يجد مشقةً وجهداً في حمل الشرائع، ف يريد شيئاً يلين له العبادة، ويسهل عليه الطاعة، فأوصاه ﷺ بالذكر.

«هَذِهِ تُعِينُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ»؛ أي هذه الوصية والعمل بها تعين على الطاعات والعبادات، وتسهلها على الذكر، ولا يجد فيها ما يجده غيره من مشقة، واعتبر في هذا الباب كبير السن من أهل الذكر الذي أصبح من كبر سنه ليس معه جسم يحملُه، وتجد أن الطاعة لينة عنده، ويخطو بخطواته المثقلة إلى المسجد خمس مرّات ولا يمل ولا يكلُّ، وربّما يستغرق خطوه إلى المسجد وقتاً طويلاً بجهد جهيد، فلا يملُّ من ذلك لسهولة الطاعة عليه وليونتها، بينما تجد الشاب من أهل الغفلة قويّ الصّحة صحيح البنية يملُّ ويتضجّر من العبادة، ويجد فيها ثقلاً وصعوبةً، ولو اعتنى بذكر الله لانت له الطاعات، وسهلت عليه العبادات ولم يجد لها مشقةً، ولهذا فإن أعظم عون للعبد على المحافظة على الطاعات، وانسراح الصدر لها، وليونتها في نفسه، وإقباله عليها بانسراح صدر أن يُعنى بذكر الله، فذكر الله - سبحانه وتعالى - يلين الطاعات، ويسهل الأمور، ويشرح الصدور، ويعين على الخير. «وَتُسَعِّدُ» أي: باب من أبواب السعادة والراحة والطمأنينة.

٥٦- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذَّكَرَ غَرَسٌ لِأَهْلِهِ بِجَنّاتِ عَدْنٍ وَالْمَسَاكِينُ مُثْعَدُونَ

ومن فوائد ذكر الله - عزّ وجلّ - أنه غراس الجنة، وكلّمَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ - جَلَّ وعلا - كان ذكره لربه غراساً له في جنّات النعيم، وهذا دلّ عليه أحاديث منها ما رواه

الترمذي^(١) عن عبد الله بن مسعود أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةً أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَقْرَأُ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانُ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، فكلَّمَا أَكْثَرَ الْعَبْدُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ كَثُرَ غِرَاسُهُ فِي الْجَنَّةِ بِلَا جَهْدٍ وَلَا مَشَقَّةٍ، بَيْنَمَا غِرَاسُ الدُّنْيَا يَحْتَاجُ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى جَهْدٍ جَهْدٍ، وَعَمَلٍ مُتَوَاصِلٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ غِرَاسٌ وَنَخْلٌ وَشَجَرٌ وَثِمَارٌ.

«وَأَخْبَرَ» أَي: النَّبِيُّ ﷺ «أَنَّ الذِّكْرَ غَرْسٌ لِأَهْلِهِ»؛ كُلَّمَا ذَكَرُوا اللَّهَ زَادَ الْغَرْسُ «بِجَنَّاتٍ عَدْنٍ» أَي: جَنَّاتٍ خُلِدٍ، يُقَالُ: عَدَنَ فُلَانٌ بِأَرْضٍ كَذَا، أَي: أَقَامَ؛ «وَالْمَسَاكِينُ تُمَهَّدُ» أَي: مَسَاكِنَ الذَّاكِرِينَ وَمَنَازِلَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ تُمَهَّدُ، وَتَهَيَّأَ لَهُمْ، وَيُعَدُّ لَهُمْ فِيهَا الْقُرَى وَالنُّزُلُ وَالنَّعِيمُ الْمَقِيمُ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، بِمَا يَقْدُمُهُ الْعَبْدُ مِنْ عِبَادَاتٍ وَطَاعَاتٍ؛ فَكُلُّ مَنْ يَعْمَلُ ذِكْرًا وَطَاعَةً وَعِبَادَةً، فَهُوَ بِهَذَا الْعَمَلِ إِنَّمَا يُمَهَّدُ لِنَفْسِهِ، وَيَهَيَّأُ لَهَا نَزْلًا فِي تِلْكَ الدَّارِ.

٥٧- وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ وَمَعَهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ

وهنا فائدتان عظيمتان من فوائد الذكر:

- الأولى: «وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ عَبْدَهُ» أَي: الذَّاكِرُ كَمَا قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ، وكما جاء في «الصَّحَّاحِينَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٢)، وَكَفَى بِالذَّاكِرِ شَرَفًا وَفَضْلًا أَنْ يَذْكُرَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

(١) (٢٤٦٢)، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِي.

(٢) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

- الثانية: «وَمَعَهُ عَلَى كُلِّ الْأُمُورِ يُسَدِّدُ» أي: مع الذاكر بتسديده وتأنيده وعونه وتوفيقيه، جاء في «صحيح البخاري» تعليقاً، وفي «المسند» للإمام أحمد وغيره موصولاً عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»^(١)، وهي معية خاصة تقتضي التسديد والتأييد، والعون والحفظ، والكلاءة والرعاية، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الوَابِلِ الصَّيْبِ»^(٢): «هي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الْحَافِلَةُ: ١٢٨]، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الشُّرَاةُ: ١٢٩]، ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَالُ لِمَنْ أَحْسَنُ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٤٠].

وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر كما في الحديث الإلهي: «أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»... إلى أن قال: والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي وهي معية لا تدرؤها العبارة، ولا تنالها الصفة، وإنما تُعْلَمُ بالذوق.

وقد جُمعت هاتان الفضيلتان في حديث رواه الشيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٣).

(١) البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانُكَ﴾، و«مسند الإمام أحمد» (١٠٩٨١)، وصححه الألباني.

(٢) (١٣٢ - ١٣٣).

(٣) البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).

٥٨- وَأَخْبَرَ أَنَّ الذِّكْرَ يَبْقَى بِجَنَّةٍ وَيَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ حِينَ يُخَلَّدُوا

ومن فوائد الذِّكْر العظيمة أَنَّهُ يَبْقَى فِي الْجَنَّةِ مَعَ الدَّاكِرِينَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يُلْهِمُونَ الذِّكْرَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ، وَيَبْقَى مَعَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحِينَ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ: «يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(١) فَمَعَ انْقِطَاعِ التَّكْلِيفِ فِي الْجَنَّةِ يَبْقَى مَعَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَذَّةً، وَهَنَاءً، وَقَرَّةَ عَيْنٍ.

قال ابنُ سعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سُورَةُ يُنُسُ: ١٠]: «أَي: عِبَادَتُهُمْ فِيهَا لِلَّهِ، أَوَّلُهَا تَسْبِيحُ اللَّهِ وَتَنْزِيهُهُ لَهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَآخِرُهَا تَحْمِيدُ اللَّهِ، فَالتَّكْلِيفُ سَقَطَ عَنْهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ، وَإِنَّمَا بَقِيَ لَهُمْ أَكْمَلُ اللَّذَاتِ، الَّذِي هُوَ الَّذِي عَلَيْهِمُ مِنَ الْمَأْكَلِ اللَّذِيزَةِ، أَلَا وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ، وَتَفْرَحُ بِهِ الْأَرْوَاحُ، وَهُوَ لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ، مِنْ دُونِ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ»^(٢).

٥٩- وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرٌ أَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى حُبِّ الْإِلَهِ وَمُرْشِدٌ

من فوائد الذِّكْر أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَنَّ الْإِكْثَارَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - سَبَبٌ عَظِيمٌ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، فَالْإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - دَلِيلٌ عَلَى حُبِّ الدَّاكِرِ لِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ ذَكَرَهُ، وَمَنْ

(١) البخاري (٣٢٤٦)، مسلم (٢٨٣٤).

(٢) (ص: ٣٥٨).

أَحَبَّ اللَّهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [الْمَائِدَة : ٥٤]، فالذكر والإكثار منه سببٌ عظيمٌ لنيل محبة الله - عزَّ وجلَّ - لعبده، فالله يحبُّ الذاكرين - جلَّ وعلا - .
ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الفضيلة أنه طريقٌ إلى حبِّ الإله، وأنَّ الله يحبُّ الذاكرين لكفى دليلاً على شرفِ الذكر وفضله، وضرورة المحافظة عليه، قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «الوَابِلِ الصَّيِّبِ»^(١): «فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنَالَ مَحَبَّةَ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - فَلْيَلْهَجْ بِذِكْرِهِ، فَإِنَّهُ الدَّرْسُ وَالْمَذَاكِرَةُ كَمَا أَنَّ بَابَ الْعِلْمِ، فَالذِّكْرُ بَابُ الْمَحَبَّةِ، وَشَارِعُهَا الْأَعْظَمُ، وَصِرَاطُهَا الْأَقْوَمُ».

٦٠- وَيَنْهَى الْفَتَى عَنْ غِيْبَةٍ وَنَمِيمَةٍ وَعَنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلدِّيَانَةِ مُفْسِدٌ

وهذه فائدة أخرى عظيمة من فوائد الذكر أنه ينهى الفتى عن الغيبة والنميمة. والغيبة: ذكر الإنسان أخاه في غيبته بما يكره.

والنميمة: نقل كلام الناس بعضهم في بعض على وجه الإفساد، والوقعة بينهم. وكلُّ منهما من كبائر الذنوب، فمن فوائد الذكر أنه ينهى العبد عن الغيبة، وعن النميمة، وينهاه عن كلِّ قولٍ سيِّئٍ كالفحش والبذاء، وغير ذلك من الأقوال السيِّئة، والكلمات البذيئة، واللَّسان إن لم يشتغل بذكر الله - عزَّ وجلَّ -، والنَّافِع من القول، سينشغل بالكلام السيِّئ، والقول البذيء؛ لأنَّه خُلِقَ للكلام، فإن لم يشغله صاحبه بكلام نافع مفيد انشغل بالكلام السيِّئ والقول البذيء.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي «الوَابِلِ الصَّيِّبِ»^(٢): «إِنَّ فِي الْإِشْتَغَالِ بِالذِّكْرِ إِشْتَغَالًا عَنِ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ مِنَ الْغِيْبَةِ وَاللَّغْوِ، وَمَدْحِ النَّاسِ وَذَمِّهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّسَانَ

(١) (ص: ٨٤).

(٢) (ص: ١٦٦).

لا يسكتُ البتَّة؛ فإمَّا لسانُ ذاكرٍ، وإمَّا لسانُ لاغٍ، ولا بدَّ من أحدهما فهي النَّفسُ إن لم تشغلها بالحقِّ شغلتنك بالباطل، وهو القلبُ إن لم تسكنه محبَّةُ الله - عزَّ وجلَّ - سكنه محبَّةُ المخلوقين ولا بدَّ، وهو اللِّسانُ إن لم تشغله بالذكر شغلَكَ باللَّغو، وما هو عليك ولا بدَّ فاختر لنفسك إحدى الخطئتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين».

فإذا؛ من فوائد الذكر أنَّه يحصِّن الإنسان، ويمنعه من الكلام السيِّئ من غيبة أو نميمة أو فحش أو بذاء أو غير ذلك.

٦١- لَكَانَ لَنَا حَظُّ عَظِيمٍ وَرَغْبَةٌ بِكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ نِعَمَ الْمُوَحِّدِ

«لَكَانَ لَنَا حَظُّ عَظِيمٍ» هذا جوابُ الشرط في قوله «وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذِكْرِهِ غَيْرُ أَنَّهُ...» أي: لو لم يكن في الذكر من فائدة إلا أنَّه يوصل العبدَ لنيل محبَّة الله، ويحمي العبدَ ويقيه من الأقوال البذيئة والكلمات السيِّئة، لكان كافياً في أن يكون لنا حظُّ كبير من ذكر الله، كيف وقد جاء في الذكر فوائدٌ كثيرة، وآثارٌ غزار لا حدَّ لها ولا عدَّ، قال ابنُ سعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي فَضْلِ الذِّكْرِ^(١): «فإنَّ ذلكَ عبادَةٌ يسبِّقُ بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبَّة الله ومعرفته وعون على الخير، وكفُّ اللِّسان عن الكلام القبيح».

«نِعَمَ الْمُوَحِّدِ» أي: الَّذِي يُخَلِّصُ لَهُ الدِّينَ وَيُفْرِدُ - تبارك وتعالى - بالعبادة، وخيرٌ ما ذَكَرَ به الذَّاكِرُونَ رَبَّهُمْ، وأفضلُ ما لهجت به ألسنتُهُمْ كلمة التَّوْحِيدِ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وهي كلمةٌ يسيرٌ لفظُها، عظيمٌ معناها، وحاجةُ العبادِ إليها هي أعظمُ الحاجات، وضرورتهم إليها هي أعظمُ الضرورات.

(١) «تفسير السَّعْدِي» (ص: ٦٦٧).

٦٢- وَلَكِنَّا مِنْ جَهِلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلَّهِ التَّعَبُّدُ

«وَلَكِنَّا مِنْ جَهِلِنَا قَلَّ ذِكْرُنَا» وهذا فيه سبب قلة الذكر عند الإنسان وهو غلبة الجهل عليه، بينما إذا استضاء بضياء العلم ونوره، وعرف فوائد الذكر وثماره وآثاره؛ فإن هذا - بإذن الله عز وجل - يكون عوناً له على ذكر الله - عز وجل -، والإكثار منه.

«كَمَا قَلَّ مِنَّا لِلَّهِ التَّعَبُّدُ» أي: كما أننا للسبب نفسه نقصر في العبادة، والعبد يحتاج بين وقت وآخر إلى أن يذكر نفسه بفوائد الذكر وآثاره وثماره العظيمة عليه في دنياه وأخراه ليكون ذلك عوناً له على الإكثار من ذكر الله - عز وجل -.

ويلاحظ أسلوب الشيخ الرفيع، وتواضعه الجَمِّ، وحسن خطابه، وفرق في الخطاب بين من يقول للمُخاطَبين: ولكنكم من جهلكم...، وبين من يقول لهم: ولكننا من جهلنا... فيشرك الجميع في الأمر بما في ذلكم نفسه؛ استنهاضاً لهمم الجميع وترغيباً لهم في ذكر الله، دون تمييز للنفس وتزكية لها، فكيف إذا كان القائل لهذا في مثل مقام الشيخ رحمه الله فضلاً ونبلاً، وإمامة في العلم والدين.

وقد جمعت هذه الأبيات مع وجازتها ثلاث عشرة فائدة من فوائد الذكر، ومن رام التوسّع في ذلك فليطالع كتاب «الوابل الصيّب» لابن القيم رحمه الله.

٦٣- وَسَلَّ رَبُّكَ التَّوْفِيقَ وَالْفَوْزَ^(١) دَائِمًا فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهَيِّمِ يَقْصِدُ

«وَسَلَّ رَبُّكَ التَّوْفِيقَ وَالْفَوْزَ دَائِمًا» أي: كُنْ دَائِمَ السُّؤَالِ، وأكثر من الدعاء والإلحاح على الله - تبارك وتعالى -، وسؤاله التوفيق والفوز.

(١) في نسخة (ص): والعون.

والتَّوْفِيقُ: أن لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نَفْسِكَ، وأن يُعِينَكَ على مَصَالِحِ دِينِكَ ودُنْيَاكَ؛ وَضِدُّهُ الخِذْلَانُ: وهو أن يُوَكِّلَ الإنسانُ - والعِيَاذُ باللهِ - إلى نَفْسِهِ ويَخْلُلَ بينه وبينها، والفُوزُ: هو حُصُولُ الرِّبْحِ ونَفْيُ الخُسَارَةِ.

«دَائِمًا» أي: باستمرار كُن سائلًا لله طامعًا في نواله وعطائه.

«فَمَا خَابَ عَبْدٌ لِلْمُهِيمِينَ يَقْصِدُ» فهو سُبْحَانَهُ لا يُخَيِّبُ من دَعَاةٍ، ولا يَرُدُّ من نَادَاةٍ، وهو القائل - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلِّهِمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ]، والقائل سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [سُورَةُ غَافِرٍ] .

٦٤- وَصَلَّ إِلَهِي مَعَ سَلَامٍ وَرَحْمَةٍ عَلَى خَيْرِ مَنْ قَدْ كَانَ لِلْخَلْقِ يُرْشَدُ

أي: صلَّ على صفوة الخلق، وإمام الهدى، وسيّد الأولين والآخرين، وخير مَنْ كان للخلق يرشدُ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

٦٥- وَآلٍ وَأَصْحَابٍ وَمَنْ كَانَ تَابِعًا صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَدُومُ وَيُخْلَدُ

وأيضًا على آله وعلى أصحابه الكرام ومن كان تابعًا لهم بإحسان صلاةً وتسليمًا دائمين مستمرين.

وبهذا ينتهي التعليق على هذه المنظومة النافعة الماتعة المفيدة لهذا الإمام؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَاَرْحَمْهُ وَأَسْكِنْهُ جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَأَحْلِلْهُ فِي الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى وَجَمِيعِ عِلْمَائِنَا، وَاغْفِرْ لَنَا أَجْمَعِينَ، وَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الرَّجَاءِ، وَأَنْتَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

فهرس

٣	- المقدمة
٥	- نصُّ المنظومة
١١	- شرح المنظومة
١١	- نداء إلى السائل عن منهج الحق
١١	- الطريق الحق
١٤	- من هو السعيد؟
١٤	- الهداية
١٦	- الإقرار بتوحيد الربوبية والألوهية
١٦	- معنى الربِّ والإله
١٧	- صفة العرش
١٨	- معنى العبادة
١٩	- اجتماع صفات الحمد والمجد والثناء لله
٢٠	- تسبيح المخلوقات لله تعالى
٢٢	- تنزيه الله تعالى عن النَّدِّ والكفاء والمثال
٢٢	- تنزيه الله تعالى عن صفات النقص
٢٣	- التَّوحيد العلمي والعملي
٢٣	- إثبات جميع أخبار الصفات

- ٢٤ - معنى التَّحْرِيف
- ٢٤ - إبطال تكييف صفات الله
- ٢٦ - معنى «الصَّمد»
- ٢٧ - معنى العلو
- ٢٨ - معنى «القريب المجيب»
- ٢٩ - صفة «الود» لله تعالى
- ٣٠ - معنى «الحي القيوم»
- ٣٠ - جود الله تعالى
- ٣١ - غنى الله عزَّ وجلَّ
- ٣١ - إحاطة الله بالخلق علماً وقدرةً وبرًّا وإحساناً
- ٣٣ - سمع الله لجميع الأصوات
- ٣٤ - الله تعالى مالك كلِّ شيء
- ٣٥ - لله تعالى الملك والحمد
- ٣٥ - إثبات نزول الله تعالى في ثلث الليل الآخر
- ٣٦ - الإيذان بأنَّ الرُّسل بَلَّغُوا البلاغ المبين
- ٣٧ - المفاضلة بين الرُّسل
- ٣٨ - المفاضلة بين الخلق
- ٣٨ - أفضل الخلق أجمعين مُحَمَّد ﷺ
- ٣٩ - أمة النَّبي ﷺ أفضل الأمم
- ٣٩ - فضل الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
- ٤٠ - الواجب تجاه الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
- ٤٠ - كلام الله تعالى

- ٤٢ - القدر
- ٤٣ - الإيمان
- ٤٥ - زيادة الإيمان ونقصانه
- ٤٧ - الإيمان باليوم الآخر
- ٤٨ - التَّفَكُّر في مخلوقات الله
- ٤٩ - آية الليل وآية النهار
- ٥٠ - التَّأَمُّل في السَّما وكواكبها
- ٥٢ - التَّأَمُّل في الأرض وما فيها من آيات
- ٥٣ - التَّأَمُّل في النَّفس البشريَّة
- ٥٤ - قيام الأدلَّة الكثيرة على وحدانيَّة الله
- ٥٥ - غرس الله
- ٥٧ - الأمر بالتَّقوى والإخلاص
- ٥٨ - التَّوَكُّل على الله
- ٥٩ - الحثُّ على الصَّبْر
- ٦١ - الخوف والرَّجاء
- ٦٢ - تطهير القلب من كلِّ آفة
- ٦٣ - بذل النصيحة للخلق
- ٦٤ - صحبة الموفَّق
- ٦٥ - التَّحذير من صاحب السُّوء
- ٦٦ - أجمع آية في الأخلاق
- ٦٨ - قصر الأمل في الدُّنيا
- ٧٠ - اتِّباع السَّلف

- ٧١ - الاعتناء بالذكر
- ٧٢ - الذكر يحقق السعادة
- ٧٢ - الذكر جالب للخيرات
- ٧٣ - الذكر طارد للوسواس
- ٧٤ - سبق الذاكرين
- ٧٤ - وصية النبي ﷺ لمعاذ خياله عنه
- ٧٥ - الذكر يسهل على العبد باقي العبادات
- ٧٦ - الذكر غراس الجنة
- ٧٧ - الذاكر يذكره الله ويسدده
- ٧٩ - الذكر يبقى مع الذاكرين في الجنة
- ٧٩ - الذكر جالب لمحبة الله
- ٨٠ - الذكر ينهي عن الغيبة والنميمة
- ٨٢ - قلة الذكر سببه غلبة الجهل
- ٨٢ - سؤال الله التوفيق والفوز
- ٨٣ - الخاتمة